

الجزء الرابع

العمل المنتظم من أجل العميان

الفصل الخامس والعشرون

المؤسسات والجمعيات

١ - وجهة نظر

من الأمور الأساسية عند النظر في أسلوب نظم العمل من أجل العميان مسألة وجهة النظر الأساسية ، ونعني « فلسفة العمى » ، التي تحرك وتوجه العمل والعاملين معاً . فإذا كان العمى هو هذه الإعاقة الغامرة التي يستحيل إزاءها عمل ، اللهم إلا تيسير مصير العميان ، فعندئذ يصبح العزل في التعليم والعمل والترويح والإقامة هو الإجابة الوحيدة الممكنة . أما إذا كان العمى على الرغم من أنه إعاقة كبرى متعددة الجوانب يمكن التغلب عليه إلى درجة تجعل الحياة العادية والعمل العادي ممكنين للغالبية العظمى من العميان ، فعندئذ ينبغي أن يتجه بنا الجهد إلى تحقيق تكاملهم ضمن مجتمع المبصرين :

ولقد أصبحت كلمة « العزل » ، من حيث هي انتهاء وانعزالية مفروضة ، كلمة معبأة بالمعاني . وفي الوقت الحاضر ، وباستثناء المناطق المعبأة تاريخياً بالأحكام القبلية ، لا يوجد غير قليل من الأمريكيين يقبلون الدفاع عن « العزل » في شكل من أشكاله . والذين يعارضون منا فكرة « العزل » بالنسبة للعميان ، ينبغي أن يسلموا بأن استخدام هذه الكلمة إنما تشيع في المشكلة من الحرارة بأكثر مما يلقي عليها من الضوء . ومع ذلك « فالعزل » والتكامل هما اللفظان الملائمان ، بل ويبدو أنهما اللفظان الوحيدان المتاحان للتعبير عن الفلسفتين القائميتين ، والاتجاهين القائمين ، وأسلوب العمل مع العميان :

والعزل ، كأسلوب للعمل مع العميان ، يسنده وزن التاريخ من خلفه .

فكثيراً ما تجمع العميان في الماضي في جماعات من أجل التدريب أو العمل - وكانت « الملاجئ » والمؤسسات والمدارس مصدراً لعدد من أعظم أشكال التقدم في العمل مع العميان ، وفلسفة العزل لا تزال حتى اليوم فعالة في مجال العمل مع العميان . بل وهناك في الجمعيات المتخصصة من يجذب إقامة « ورش التدريب » ، ومن يجذب أشكالاً أخرى كثيرة للمناشط القائمة على العزل (والتي كثيراً ما تتنوع تحت التسمية الشائعة الآن « العمل الجماعي ») .

وعليه فسنحاول ما وسعتنا الموضوعية أن نقدم الحجج التي لا تزال تتردد دفاعاً عن العزل ، ثم نحاول بعد ذلك أن نتبين السبب في أنه وإن كان العزل في الماضي ضرورياً ، بل ومفيداً ، فإنه لم يعد كذلك الآن ، وأن التقدم في مجال العمل مع العميان يفضي في اتجاه التكامل .

أيقال إن العزل هو أكثر الطرق مساهمة للناحية الاقتصادية في تناول مشكلات العميان ، فهذه الطريقة اقتصادية من الناحية المالية ، لأنه من الأرخص والأيسر دائماً إقامة معاهد ومبان وإدارتها لتقديم الخدمات بالقياس إلى تقديم هذه الخدمات في المستوى المحلي ، في كل مناطق البلاد . وهي اقتصادية أيضاً من وجهة نظر الخدمات . فهناك اقتصاد في وقت الأخصائيين الثمين حين نجتمع عملاءنا في مركز واحد بدلا من أن يتبعثر وقت الأخصائيين في الانتقال إلى مناطق مختلفة . هذا إلى أن العزل يجعل من الأيسر تقديم خدمات أفضل . فبتجميع عدد كبير من العميان في مكان واحد تتحقق فرصة أفضل لإقناع حشد من المتطوعين - وحشد من المتبرعين بالأموال - بقيمة ما نقدمه من خدمات .

ويقال أيضاً إن التوتر والإحباط يهيمنان بالضرورة على العميان حين يتنافسون مع المبصرين ، حيث تتراكم عليهم وتلتصق بهم مظاهر الشذوذ والغرابة . ومما يقال أيضاً إن العمى الذي يعيشه الأعمى مشاركة مع أقرانه

العميان يتيح له أن يستمد قوة من الموقف الجماعي ، ومن ثم تنخفض جداً وطأة العمى .

كذلك نسمع غالباً أن الأعمى وحده هو الذى يستطيع حقاً أن يفهم الأعمى . « فالبصرون لا يستطيعون أبداً فهمهم . فلترك العميان معاً ، إذ هم يجوبون ذلك فى الواقع . فقلة من المبصرين هى التى تستطيع أن تفهم الإعاقة ، وهؤلاء هم الذين ينبغى أن يكونوا العاملين فى المراكز العازلة للعميان . وعندئذ يستطيع العميان أن يحصلوا من زملائهم العميان ومن هذه القلة المتفهمة من المبصرين العاملين على شىء من السعادة ، وأن يحققوا شيئاً من التدريب » .

والعميان على أية حال — كما يقال — غير مرغوب فيهم بين جماعات المبصرين : — « لانهم يستشعرون أنهم غير مرغوب فيهم ، ومن ثم سيشعرون دائماً بالشقاء فى أى موقف يجلبون أنفسهم فيه بين المبصرين » . هذا إلى ما يقال من أن وضع العميان فى مواقف المبصرين إنما يتمخض فحسب عن معاملتهم معاملة الرضع ، كما يحدث مثلاً عند وضع طفل أعمى فى مدرسة للمبصرين . « إن الأعمى سيكون أحسن بكثير عند ما يكون بين أناس لا يفعلون بإعاقته ، ولا يتلفونه تدليلاً » . ويقال أيضاً فى تحييد مواقف العزل ، إن الأعمى حين يجد نفسه بين جمع من أقرانه العميان لا يتعلم من ملاحظة ما يفعلون فحسب ، وإنما أيضاً يوحى إليه هذا الجو فى الواقع بمزيد من الجهد لقهر إعاقته حتى يصبح شخصاً عادياً .

ولا ينبغى أن نفهم من هذا أن القوة الوحيدة الدافعة إلى العزل تأتى دائماً من خارج العميان ، من العاملين المبصرين فى الجمعيات ، أو من جمهور المبصرين . والحق — كما رأينا من قبل — أن عزل العميان كأمى شكل من أشكال العزل يستند إلى دافع داخلى كما يستند إلى دافع خارجى . فهناك

عميان ولا شك لا يشعرون بأنهم « في بيتهم » إلا وسط عميان آخرين . وهناك عميان يشعرون بأنهم لا يقدرّون على التنافس في مجال العمل إلا مع عميان . وهناك أيضا من العميان من لا يطلبون العمل فحسب ، وإنما أيضا الإقامة والترويج مع عميان . (وهذا يصدق بصفة خاصة ولأسباب واضحة ، على العميان المتخرجين من المدارس الداخلية للعميان ، حيث تكونت زمالاتهم وصدقاتهم بين العميان ، في حين لم تتح لهم أية فرصة لكسب صدقات بين المبصرين) . ولكن ليس معنى هذا أنه يتحتم علينا أن نقبل هذا الموقف ، ناهيك بأن نجذبه .

ومن المسلم به أن التاريخ يكشف لنا عن أن العزل قد تمخض في الماضي عن بعض المنافع لبعض الجماعات . بل ولربما كان العزل مرحلة ضرورية في تقدم مجال العمل مع العميان . ولكن وإن كان العزل الطريقة الوحيدة العملية المتاحة في الماضي لتناول العميان ، فليس في هذا ما يثبت ، أو حتى يوحي بأننا ينبغي أن نقتصر على هذه الطريقة في أيامنا .

فالعزل حين نتحدث بلغة العاملين والنفقات ، هو ولا شك أكثر الطرق الاقتصادية في تناول العميان . ولكن كما تكون الطريقة اقتصادية حقاً ، فينبغي أن ننظر إليها من زاوية نتائجها . وكثير منا يؤمن بأن نتائج طريقة التكامل تفضل بكثير نتائج طريقة العزل إلى حد يجعل طريقة العزل تبرز في معظم الحالات غير اقتصادية ، ومن الممكن أن يكون في تجميع العميان في مكان واحد ما يقيم انطباعاً قوياً في مجتمع المبصرين ، فهناك خطر حقيقي في أن هذا النوع من التأثير يتعارض مع أهدافنا النهائية ، إن في ذلك ما قد يثير الانطباع القوي عند المبصرين ويفتح أكياس نقودهم ، ولكن ليس فيه ما يضع في الاعتبار إقناع المبصرين « بسوية » العميان ، كائنة ما كانت الدعاية المستخدمة .

أما فيما يتصل برغبة العميان أنفسهم في العزل ، فقد سبق أن تناولنا الأسباب المستتولة عن ذلك . وليس الحل هو أن نستسلم لهذا الاتجاه للعزل ومن ثم ندعمه ، وإنما الحل أن نعين هؤلاء العميان بكل طريقة حتى يستشعروا الحاجة للهروب من مجتمع المبصرين على نحو ما عرفوه :

وصحيح أيضا أن ثمة قوة تستمد من موقف الجماعة ، عندما يكون هذا الموقف الجماعي خاضعا للضبط ويعيشه الشخص كوقف مؤقت . والخطر هو أن تتدهور هذه القوة إلى مواقف قوامها « البؤس يجب الصحبة » ، مما يستنزف قوة الفرد ويحل محلها مشاعر الاتكال على الجماعة . هذا إلى أن العزل يتمخض عن النتيجة المؤسفة بشكل مروع ، ألا وهي إقامة مشاعر الأقلية . وفي ذلك ما يزيد العداوات ما بين الجماعتين بدلا من تخفيفها (على نحو ما يمكن أن يحققه موقف العلاج الجماعي) ، وما يؤدي غالبا بالفعل في الحالات المتطرفة إلى ما يشبه « برانويا » جماعية :

وبالنسبة إلى التوترات والإحباطات التي يستشعرها العميان في تناقصهم مع المبصرين ، فعلينا أن نتنبه إلى أن هذا الأمر وإن كان حقيقيا فهو ليس « كل » الحقيقة . فلا بد أن نضع أيضا في الاعتبار أن الهروب من موقف المنافسة يمكن أن يتمخض عن توترات أشد ، بل وكثيرا ما يؤدي إلى تلف حقيق في الشخصية :

وليس يهم ما يبدو على العميان من اكتمال الرضا في موقف العزل ، فإنهم يستشعرون ، ولا مفر لهم من أن يستشعروا ، في أعماقهم ، الخنق لزاء هذا الموقف الذي حرّمهم الفرصة الفسيحة لاختيار الأصدقاء والأصحاب مما يتيح مجتمع المبصرين . فالعزل يحرم العميان من كل أشكال العلاقات العادية بين الأشخاص ومن التجارب المثمرة . فوقف العزل بطبيعته مجتموم عليه أن يؤدي إلى إشباعات متناقضة في كل مجال .

فإذا كان العميان لا يجلبون ترحيباً صادقا بهم في دوائر المبصرين ، فالحل هو أن نعمل شيئاً هو لاء العميان ولدوائر المبصرين هذه . وفيما يتصل بهذه الدوائر بصفة خاصة يعد مبدأ العزل أمراً سيئاً . كيف لنا أن نأمل يوماً في تثقيف الجمهور عن العمى والعميان ونحن نحتجز العميان في عزل ؟ وفيما يتصل بالعلاقات العامة وتثقيف الجمهور فإن طريقة العزل هذه في تناول العمى ان تتقدم بنا على الإطلاق ، من حيث إنها تستند أساساً إلى هذا التصور ، الذي هو بالفعل واسع الانتشار ، وقوامه أن الأعمى هو بشكل ما شخص « مختلف » ومباين .

وليس من شك في أن الأعمى وحده هو الذي له معرفة الخبرة الحية بالعمى ، ومن ثم فعتده « تبين » حقيقي لدلالة العمى . ولكن ليس في هذا بأى حال ما يمنع إمكانية تثقيف المبصرين بحيث يصلون إلى فهم عقلى حقيقى للعمى ، وإمكانية تدريب بعضهم بحيث يحققون تطابق التجربة المشتركة الذى يعد عظيم الأهمية . والحق أنه في بعض المواقف يفيد الأعمى كثيراً من موضوعية وحيادية الأخصائى المبصر القدير من العاملين في حقل العمى ، كما أنه في مواقف أخرى يفيد من الخبرة الانفعالية للأخصائى الأعمى من العاملين في حقل العمى ، خبرته بالوظأة الكلية للعمى .

وليس من شك في أننا جميعاً قد رأينا حالات كانت فيها الجماعات المبصرة ، وقد نمرها انفعالها لإزاء العمى ، تقوم على التذليل المتلف للعميان (أطفالاً وراشدين) . ولكن هنا أيضاً لا ينحصر الحل في أن نضع العميان حيث لا يستطيع الجمهور أن يضطلع بتدليلهم ، ولكن الحل هو في أن نقوم بتوعية الجمهور بصورة كاملة بحيث لا يقوم بهذا التذليل .

وأخيراً ففياً يتعلق بالموقف الجماعى للتعليم ، يكن الخطر في أن يتحقق هذا التعلم من أجل الحياة في عالم عميان ، وليس في عالم مبصرين ، وأن يتحقق التعلم هروباً من الواقع أكثر منه تكييفاً للواقع . وعليه فن الممكن أن تكون

نتائج التعلم ضارة بالفرد أكثر مما تكون نافعة . وكذلك فيما يتعلق بالوحى المستمد من الآخرين فى الجماعة .

فعلى الرغم من صحة ذلك فبوسع طرائق أخرى غير العزل أن تؤدى إلى نفس النتيجة - سواء باستخدام وسائط مختلفة للاتصال حتى نحيط الأعمى علما بنجاحات وانجازات العميان الآخرين ، أو بتحقيق اتصاله بعميان آخرين يمكنهم أن يزودوه ببعض ما يمكن للجماعة أن تزوده به فى هذا الاتجاه دون أن نعرضه للمواقف الجماعية العازلة .

وهكذا فإن العزل لا يبدو الحل الملائم والضرورى لمشكلات معظم العميان . من الممكن أن تكون هذه الطريقة هى الحل الوحيد المتاح فى عصرنا على الأقل ، بالنسبة إلى العميان من أصحاب الإعاقات الإضافية الأخرى . فالمعوقون بضعف عقلى شديد مثلا ، قد يستطيعون شق طريقهم فى مجتمع مبصر ، أو العمل فى مصنع مبصرين ، أو يتدربون فى بيئة مبصرين . وكذلك أيضا العميان من أصحاب الإعاقات البدنية الأخرى ، وبخاصة الصمم المنضاف إلى العمى ، فإنهم يمكن أن يتطلبوا فى الظروف الحالية الرعاية التى يتيحها العزل . وعلى الرغم من ذلك فإنه يمكن لطريقة التكامل أن تحرز خطوات من التقدم ، تنبج لكثيرين من المتتمين إلى هذه الفئات أن يتحرروا من حتمية العزل .

وحيث يشعر شخص طاعن فى السن أنه لا يملك شيئاً يواجه به العبء المزدوج ؛ عبء الشيخوخة والعمى ، وحيث نعجز عن أن نتغاب على هذا الشعور عنده ، فقد يكون العزل ضروريا بما يتيح من خدمات إضافية ؛ ولكن حتى فى هذه الحالة غالبا ما نجد فى بيت للشيخوخة حلا أفضل مما نجده فى بيت عازل لعميان المسنين .

والأشخاص المعوقون بسبب المشكلات الانفعالية الخطيرة - الذين يعانون

مشاعر عصائية شديدة تجاه المجتمع والأخطار التي تواجههم في عالم المبصرين - هؤلاء يمكن في بعض الحالات عزلهم « مؤقتاً » وذلك أثناء إعانتهم على التغلب على مشكلاتهم هذه .

وأخيراً بالنسبة إلى حديثي العمى قد يكون العزل المؤقت أثناء التدريب معيناً لهم ، وذلك « متى » استخدمناه بحيث تظل طبيعة المرء المؤقتة دواما ماثلة في الذهن . ولكن من الأهمية بمكان أن توضع عدة حدود في المراكز للترويح الجماعي ، وأن يوضع حد زمني للعزل حتى يكون مفهوماً أن العزل مؤقت ، وأن يكون معروفاً بوضوح أن كل الهدف من وراء العزل هو تحقيق تكامل ، وذلك متى تم بلوغ هذا الحد الزمني . (ولا شك أن معارضتنا للعزل هذه لا تمس بأي حال تكوين منظمات العميان ، هذه التي ينحصر هدفها في الاجتماعات الدورية الرامية إلى تحقيق المزيد من التقدم في حقل العمل مع العميان ، أو إلى الدفاع عن حقوقهم في ظل التشريعات القائمة أو المقترحة) .

فالعزل إذن ، على الرغم من استحالة استبعاده كلية ، فإنه « ينبغي الحد منه » ، وبصورة متزايدة . وسواء أكان الدافع إليه صادراً من العميان أو من المبصرين العاملين معهم من جمعيات العميان ، فإن العزل هو استسلام وهروب : إنه استسلام لمشكلات العمى أكثر منه قهر لها . وهو هروب من المجتمع المبصر ، كما أنه ، من جانب المبصرين العميان ، على السواء - هروب من مواجهة حقائق العالم الذي نعيش فيه ، إنه هروب من الحياة مع العمى ، ومن تقبل مشاعرنا لإزاءه .

فإذا كان الدافع إلى العزل صادراً من جمعيات العميان فإنه يعبر عن عدم ثقتها في قدرتها على تحقيق « التكامل » للعميان ، وعن عدم ثقتها في في استعداد العميان لأن « يتكاملوا » . وفي معظم الحالات لا يكون تصرف هذه الجمعيات صادراً عن مشاعرها الداخلية الخاصة - من حيث إنها لم

تفحص بعد مشاعرها الداخلية الخاصة - بقدر ما هو راجع إلى السوابق التاريخية . ولكن السوابق نفسها تولدت من شعور باليأس من محاولة تحقيق « التكامل » للعميان (وذلك تماما على نحو ما نقول الآن إنه تحت ظروف معينة لا أمل في محاولة تحقيق التكامل بالنسبة إلى بعض جماعات الإعاقة المزوجة المختلفة) .

وعلى أية حال ، فإنه وإن كان عزل العميان فيما مضى لأغراض متعددة قد بدا وكأنه الطريقة المثلى الوحيدة لمواجهة موقف ميثوس منه من الناحية العملية ، فقد أصبحت هذه الطريقة الآن ، بفضل التقدم^(١) في المعرفة في عشرات السنين الأخيرة طريقة انهزامية في مواجهة موقف مليء بالأمل . ولقد بلغنا مرحلة من التقدم في العمل مع العميان ينبغي أن يتوقف نجاحنا الحقيقي فيها على تكامل العميان ضمن مجتمع المبصرين . وينبغي أن يكون الهدف المزوج لجمعيات العميان منذ الآن وصاعدا هو إعادة العميان إلى مكانهم الحق في مجتمع المبصرين ، وتعليم هذا المجتمع ، بحيث يستطيع أن يتقبل العميان المتكيفين دون أن تغمره مخاوفه منهم ومشاعره إزاءهم .

٢ - ورش خاصة بالعميان

لعل أكثر ما يعرفه الجمهور من مؤسسات العميان هو هذه المدارس الخاصة التي أسهمت أيما إسهام في تقدم العمل مع العميان : ولقد ناقشنا أمر هذه المدارس عند الحديث عن الحاجات التعليمية للأطفال العميان والمؤسسة الأخرى جد المعروفة في مجال العمى هي الورشة الخاصة ، ولو

(١) على خلاف الأشكال الأخرى من التقدم الاجتماعي ، وهي الأشكال التي غالباً ما تتحقق أولاً في مراكز التجمعات السكانية الكبيرة ، فإن فرصة هذا التقدم في مجال العمى تزداد في المناطق الريفية وفي الضواحي أو المدن الصغيرة . ومن سوء الحظ أن المراكز المزدهمة بالسكان هي التي تضطرها الظروف للاحتفاظ بالبرامج العازلة لإقامتها .

أن الجمهور عادة ما يلتبس عليه الأمر تماما فيما يتصل بمختلف أنواع الورش وطبيعتها وأغراضها .

ومن الزاوية التاريخية فإن العمل المنظم مع العميان أفاد فائدة كبيرة من هذه الورش الخاصة التي عادة ما تندرج تحت اسم « الورش تحت الحماية » ، إذ أن الغرض من معظمها كان في الواقع أن يحتوى بها العميان من المنافسة المباشرة وجها لوجه في الوظائف المادية في الحياة اليومية ، ولكن الكثير من هذه الورش قد أنشئ بهدف مختلف يجعل الورشة مجرد مرحلة انتقال إلى عمل آخر . وهذا النوع من الورش قصد به أن يكون ورش تدريب يقبل فيها العميان كمتعلمين حتى يتم إعدادهم لتولى أعمال في مجال الصناعة العادية .

وحين أنشئت هذه « الورش التدريبية » لأول مرة كانت تمثل خطوة للأمام — خطوة جد هامة وتبشر بخير كثير . ذلك أنها تمثل اعترافاً بأن العميان يحتاجون إلى تدريب خاص ، وبأنهم إذا تدرّبوا تدرّبا صحيحاً يمكنهم أن يشغلوا الوظائف العادية . هذا إلى أن التدريب كان يتم تحت ظروف تتخذ مظهر العمل العادي الجاد ، فإذا وضعنا في اعتبارنا الاتجاه السائد في ذلك الوقت تجاه العمى والعميان ، فإن إنشاء هذه الورش يعد نقطة انطلاق جديدة ومليئة بالأمل . (والواقع — انظر فيما يسمى « بالدول النامية » اليوم يمكن أن تنعم بمثل هذه القيمة) .

ولكن في معظم الحالات لم تحاول هذه الورش أن تميز ما بين عميان المولد ومتأخرى العمى . ولما كانت فرص التشغيل جد محدودة في المناخ الاجتماعي السائد في ذلك الوقت ، فإن الورش لم تحفل إلا قليلا بالتعليم للسابق ، أو بالتدريب والخبرة العملية السابقة لعملائها . ولكن الصعوبة الكبرى بالنسبة إلى هذه الورش أنها أصبحت في الواقع ، ليست فحسب مراكز تدريب كما قصد منها أن تكون ، وإنما أصبحت أيضا مراكز

تظامية للتشغيل المستمر . فبدلاً من أن تقوم بتسريح عملائها الذين لا تستطيع تهيئهم فإنها احتفظت بهم كموظفين دائمين .

وهناك خطتان يمكن اتباعهما في مثل هذا الموقف : إحداهما هي الاحتفاظ بصالح الورشة ، ليس فحسب بالذين يستحيل تشغيلهم ، وإنما أيضاً بالمتمازين الذين يستطيعون أن يجدوا فرصاً أخرى للتشغيل . والخطة الثانية هي الاستمرار في تعيين المتمازين في وظائف الحياة العادية . ولكن في هذه الحالة سرعان ما يعم الورشة مجرد هذا النفر من العمال القليل الكفاية ، وعندئذ يتدرب العملاء الجدد ، من الأكفاء وغيرهم ، في جو مشبع بالضرورة « بعدم القابلية للتشغيل » مما يسم هذا النفر . وسرعان ما تصبح الورشة موجهة بحيث لا تستطيع التدريب لتغذية الصناعة العادية أو غيرها من أوجه التشغيل الخارجية . وإنما تدرّب فحسب على العمل في ورش تحت الحماية .

وهناك بعض الحاجة ولا شك إلى الورش تحت الحماية التي لا يقصد من ورائها شيء آخر . ولكن حتى لو استطاعت ورشة التدريب أن تلتزم بفرضها الأصلي - وهو أمل مستحيل عملياً - فإنها لم تعد تستطيع اليوم أن تخدم أى غرض نافع . فالأشخاص الذين ينزل بهم العمى وهم راشدون ، وعند أغلبيتهم الساحقة خبرة سابقة بالعمل - يحتاجون أول ما يحتاجون إلى التدريب على العمى » . ومن ثم فإن مركز التأهيل هو اليوم وريث ورشة التدريب حسب تصورهما الأصلي . وعندما يحتاج واحد من هؤلاء إلى تدريب متخصص على نوع جديد من العمل ، صناعياً كان أو غير صناعي كما رأينا ، فإنه يستطيع أن يتلقاه على نحو أجدى في مدرسة نظامية ، أو وفق برنامج نظامي مختص بهذا النوع من العمل .

أما عميان المولد وغيرهم من العميان الذين ليست لديهم أية خبرة بالعمل

قبيل العمى فقد كانوا الفئة التي استفادت أعظم فائدة من ورش التدريب في الماضي . ومن الناس من لا يزالون يعتقدون أن هناك حاجة إلى ورش التدريب الخاصة لخريجي مدارس العميان . ولكن هذا كما رأينا من قبل يعدّ طعناً في المدارس الداخلية ، وعلى أى حال فإن الذى يلزم ليس مزيداً من التدريب الانعزالي ، وإنما إرشاد نفسى خاص يعين هؤلاء الناشئين على أن يحققوا التكيف المزدوج للحياة الراشدة وللحياة فى مجتمع المبصرين . فإذا كانت هنالك حاجة إلى تدريب خاص مهني أو صناعي أو غير ذلك من أنواع التدريب ، فإن ذلك ينبغي تلقيه فى المعاهد التعليمية المخصصة للمبصرين .

ولكن المشكلة هنا تتركز فيما يبدو فى هؤلاء المتخرجين من مدارس العميان والذين هم من ناحية ما أقل من المتوسط ، ومن ثم فهم مهياون للقبول بصفة دائمة فى الورش تحت الحماية .

إن « الورشة تحت الحماية » هى على وجه الدقة مركز للتشغيل الدائم للعميان غير القادرين على التنافس مع المبصرين . والعاملون فيها ليسوا فى الواقع موظفين ، ولكنهم عملاء للجمعية التى تتولى تشغيل الورشة والتى تعينها مالياً بالضرورة ، وأحياناً إلى حد باهظ . وغرض مثل هذه الورشة أن تهيئ لعمالها ما يشغلهم بصفة مستمرة وأن تقدم بنوع من الدخل مع الشغل .

وكما رأينا يوجد مجال فى مثل هذه الورش تحت الحماية للعناية بالعميان منخفضى الذكاء . كما قد تكون هنالك حاجة إليها بالنسبة لفئة العميان ممن لو كانوا مبصرين لوجدوا أنفسهم فى هامش القوة العاملة المنتظمة ، أو فى موضع لا يبتعد كثيراً عن هذا الهامش . ذلك أولاً لأن الأعمال « الهامشية » تكاد تكون كلها حكراً على العميان ، وثانياً لأن العمى يتطلب من الشخص أن تكون لديه فرصة امتياز ما حتى يقدر على التنافس .

ونفس كلمة «إعاقة» توحى بهذا . ولكن هناك عدداً من العميان تماماً ، كما أن هناك عدداً من المبصرين ، ليس لديهم هذا الامتياز ، ومن ثم ينبغي أن نعدهم ضمن «الخائبين» وذلك بقدر ما يتصل الأمر بالعمل في مواقف الحياة العادية . فبالنسبة إلى هذا الصنف من العميان يمكن للورشة تحت الحماية أن تجيب على حاجة حقيقية .

وهناك صنف آخر ، ونعني أولئك العميان المصابين بإعاقة أخرى ، تضيق أمامهم فرصة العمل ؛ فقد يمكنهم أن يعملوا في الصناعة بعض الوقت ولكن لا يمكن تشغيلهم بصفة دائمة . ولكن إن كانت فرصة الاختيار متاحة فلا ينبغي لهؤلاء الأشخاص أن يعملوا في ورشة تحت الحماية ، وإنما في ورشة يتم تصميمها على أساس الإعاقة الأخرى التي تعد مشولة عن تضيق مجال العمل .

ومن هنا فورش «تحت الحماية» إن كان لها أن تبقى على الإطلاق ، فينبغي أن نتبين في إقامة حدودها وأن نعلن ذلك على الجميع ؛ فهي ليست «ورشة عمل للعميان» ، وإنما هي حل نوعي لهذا النفر من العمال الهامشين ، ممن يعد عجزهم عن الحصول على عمل في السوق الحرة للمبصرين راجعا ببساطة إلى كونهم «هامشين» . ولكن لسوء الحظ نجد في الوقت الحاضر كثيراً من هذه الورش ، أو من الورش التي تجمع ما بين خصائص ورش الحماية وورش «الإنتاج» ، تضم عدداً كبيراً من العميان ذوي الكفاية العالية ، والذين ما كان لهم - لو كانت الظروف مثالية - أن يوجدوا في مثل هذا المكان .

والنوع الثالث من الورش هو «ورش الإنتاج» ، وهي ورش تخلصت من الكثير من مظاهر «الحماية» التي نجدها في ورش الحماية بالمعنى الدقيق ؛ فهذه الورش هي ورش للتشغيل العازل للعميان ، ممن يقتدرون بالفعل على العمل في المصانع العادية . وهي لا تقبل من العميان القليل الكفاية ، إذ أن

هذه الورش تعمل في تنافس مع المصانع العادية . فعالمها العميان ليسوا عملاء جمعيات وإنما هم عمال بالمعنى الدقيق ، يكسبون حقاً أجرهم . مثل هذه الورش لا تتلقى معونات ، ولكنها تعمل إما على أساس من الربح أو على الأقل لا تخسر .

ولكن هذه الورش قلما توجد في صورتها النفسية هذه . فإن ما نجده في كثير من الأقاليم هو ورش تجمع في نفس الوقت ما بين ورش التدريب ، وورش تحت الحماية بالمعنى الدقيق ، وورش الإنتاج . وقد نجد ورشة من نمط ورش الإنتاج ولكنها تتلقى معونات ، إما بصفة مباشرة إلى حد ما ، وإما بصفة غير مباشرة إلى حد ما في شكل إعفاءات وقوانين جافية :

بعض هذه الورش أنشأتها جماعات خيرية لا تفهم الحاجات الحقيقية للعميان في المجتمع ، ومن ثم فقد حسبت أن هذه الورش هي الحل الأمثل . ومع ذلك فغالباً ما كان المؤسسون يدركون أن الورشة العازلة (سواء أكانت ورشة لإنتاج أم غير ذلك) لم تكن هي الحل الأمثل ، ولكنها أفضل حل يمكن تحقيقه في ظروفهم الراهنة . كانوا ينظرون إلى الورش (وما زال البعض يعتقدون ذلك) على أنها ضرورة مؤقتة ، في وقت يرفض فيه أصحاب الأعمال تشغيل العميان المقتدرين في أعمال يستطيعون إنجازها . فبالنسبة إلى هؤلاء المؤسسين تعد الورشة شراً لا بد منه ، في وقت لا تزدهر فيه العمالة ، أو في منطقة تكثر فيها البطالة ، باعتبارها الحل الوحيد الممكن الذي يتيح عملاً للعميان المقتدرين وشيئاً من الكسب ، وشيئاً من الكرامة .

وينبغي أن نسلم بأن مثل هذه الورش قد كانت ويمكن أن تكون في مرحلة من مراحل التطور التاريخي لتشغيل العميان . ولكن ينبغي أيضاً أن نتنبه إلى أن ورشة الإنتاج تتوقف عن تحقيق هدفها عندما تكون في نفس الوقت ورشة تدريب ، أو ورشة تحت الحماية . هذه الملاحظة هامة

لعدة أسباب ، أحد هذه الأسباب هو أن ورشة التشغيل كما تضطلع بهدفها فلا بد لها من أن تدار بفاعلية ، واضعة في اعتبارها أن تحقق إنتاجاً يستطيع مواجهة المنافسة (المنافسة على أسس عادلة) مع المبصرين . فتي توقفت عن أن تدار على هذا النحو زحفت عليها « التسلطية الوالدية » ، مما يتمخض عنه تدمير المعنوية . وعندئذ يكون قد تداعى أحد الأهداف الأساسية للورشة .

وأحياناً ما يوجه النقد إلى ورش الإنتاج لتشغيلها بعض المبصرين في بعض الأعمال . وقد يجد هذا النقد ما يبرره في بعض الحالات ، ولكن يمكن القول بصورة عامة إن الاستعانة بالمبصرين حينما يزيد ذلك من فعالية الورشة تعد أمراً حكيماً ، وفي غير صالح العاملين مع العميان . فهمة ورشة الإنتاج هي تشغيل العميان على نحو يتيح لهم خير عائد من عملهم . وقد تكون خير وسيلة لتحقيق ذلك التأليف ما بين أعمال بصرية وأعمال غير بصرية ، بحيث يوكل إلى كل فئة الأعمال التي تستطيع إنجازها بأقصى فعالية .

ولكن حتى حين تنجح ورشة الإنتاج في الإبقاء على طابعها الأصلي وهدفها الأصلي ، فإنها تنطوي بالضرورة على خطر ، ليس خطر العزل في موقف العمل فحسب ، وإنما أيضاً خطر امتداد هذا العزل إلى خارج نطاق العمل - إلى الترويح ، وحتى إلى الإقامة ، بل وحتى إلى أساليب التفكير نفسها . وحتى حين يكون القائمون على الورشة مناهضين للعزل ، فإن العميان العاملين فيها ينتهي بهم الأمر إلى ذلك بصفة طبيعية نتيجة تجميعهم معاً في العمل . وسرعان ما يلتقون معاً في المساء ، ويشتركون معاً في الترويح ، ويعيشون في نفس المنطقة - مما يسارع إلى تحطيم الرغبة في الحياة في عالم المبصرين ، وتأتي في أثر ذلك كل الإحباطات التي ينطوي عليها العزل . (ويستطيع القارئ أن يتبين أيضاً عدد الفقدانات التي

يمكن أن تجد خير تأهيل لها في ورشة تحت الحماية ، حتى ولو كانت ورشة إنتاجية ، وأن يتبين كثرة الفقدانات التي يمكن أن تتعرض للاستفحال في هذا الجو .

وأكثر من ذلك أن العميان المقترنين من العاملين في هذه الورش يمكنهم أن يحصلوا على وظائف أفضل بكثير ، لو أن أموال المعونة التي تبذل لهذه الورش أنفقت بدلا من ذلك في تشغيلهم لإيجاد أعمال لهم ولأمثالهم في المصانع العادية .

وكأثمة ما كانت ظروف ورشة الإنتاج الصناعي الخاصة بالعميان ، فإنها تنطوي على عيب خطير هو تدعيم الصورة الجارمة التي قوامها أن جميع العميان ينبغي أن يشتغلوا بالصناعة . وحتى بصرف النظر عن الورش فكثير من العاملين في مجال العمى (بما في ذلك أخصائي التشغيل) يقعون ضحية لإغراء التدريب من أجل التشغيل في المصانع ، فيضعون في المصانع من العميان من تنأى بهم استعداداتهم عن ذلك تماما . وليس هناك ما يعيب العمل في المصانع ، ولكن غالبية المبصرين أنفسهم ليسوا بعمال صناعيين ، وليس هناك ما يدعو إلى أن يكون أغلبية العميان صناعيين .

وعليه ففي أحسن الحالات ينبغي النظر في ورشة الإنتاج على أنها بديل مؤقت كانت من قبل مفروضة على جمعيات وعلى العميان العاملين بسبب رفض جمهور المبصرين الاعتراف بإمكانيات العميان :

ولكن من الواضح أن هذه الورش تحت الحماية سواء من النوع الإنتاجي أو غيره لا يمكن الاستغناء عنها دفعة واحدة (في الولايات المتحدة) . فجمعيات العميان قد أنشأت هذه الورش مما يعنى تعاقداً ضمناً مع العميان بتشغيلهم الدائم : فإن كنا قد أقمنا علماً من العميان ،

وسقناهم إليه أو دفعناهم إليه فليس حل المشكلة هو أن ندمر هذا العالم ، ولكن الحل بالحري هو أن نتثبت بالانسواق أو ندفع أى أحد من جديد ، وأن نتخذ من الخطوات فى نفس الوقت ما يمكن أكبر عدد ممكن من مغادرة هذا العالم .

والمهمة الأخيرة عسيرة ، ولكن ينبغى الاضطلاع بها ما وسعنا الحيلة . فنحن نلتزم لزاء هؤلاء العميان بتشغيلهم ما دما قد سقناهم إلى الاعتقاد بأننا سنقوم بتشغيلهم ، وذلك حتى يخلصوا من مشكلاتهم الخاصة بنجاح يهبهم لمغادرة الورشة تحت الحماية .

ويوجد اليوم نقاش كبير يدور حول ما إذا كان على الورش المختصة بتشغيل المعوقين وحدهم أن تتحد فيما بينها ، وطالما وجدت ورش الإنتاج ، فهناك كل سبب يحمل على تنظيمها اعترافا بكرامة العاملين بوصفهم عاملين (وهذا بالطبع لا يتم فى صورة اتحاد يتسم بالتسلطية الوالدية) . أما توحيد ورش التدريب وورش تحت الحماية بالمعنى الدقيق فهى مسألة أكثر تعقيدا ، وذلك لأن العاملين إما أنهم طلاب يتعلمون أو عملاء جمعيات للعميان . فى مثل هذه الورش يبدو من الضرورى على الأقل أن يسهم فى إدارتها ممثلون عن تنظييات العمل ، ليس فحسب من قبيل التعاون على مستوى الإقليم ، وإنما أيضا لحماية حقوق العمل من ظروف المنافسة غير العادلة ، ولحماية حقوق العاملين العميان الذين هم طلاب أو عملاء فى هذه الورش .

وخلاصة القول ، ينبغى أن نعمل فى اتجاه يبعدهنا عن ورشة التدريب تماما ، وعن ورشة الإنتاج ، اللهم إلا أن تكون مجرد ضرورة وقتية ، على أن تكون كلية وحسب ورشة إنتاج . وأخيرا ينبغى أن نضع فى تخطيطنا مجرد الاحتفاظ بورش تحت الحماية بمعناها الدقيق ، وأن نحتفظ بها فحسب فى الحدود التى تَحتمها الضرورة فى الظروف القائمة .

٣ - عمل الجمعيات في حاضرها ومستقبلها

إن تنظيم العمل مع العميان ، كما يتضح من كتابنا ، إنما هو الآن إلى حد كبير في مرحلة انتقالية . ويسود الجمهور شعور عام بأن كل شيء يمكن عمله من أجل العميان قد تم عمله فعلا ؛ وجمهور الناس يسهم بالمعونة فيشتري الأحزمة ومصنوعات القش « مساعدة للعميان » . والناس يعرفون مدارس العميان ، ويرون العميان بعصيتهم أو كلابهم المصاحبة ، وعندهم شعور غامض « بأن الكثير في هذه الأيام يجري عمله من أجل مثل هؤلاء الأشخاص » ولكن القادم الجديد إلى الحقل تهوله ضآلة تقدم العمل في هذا الميدان - بعد كل هذه السنين .

فقد كان هناك عميان منذ فجر التاريخ . وفي ثقافة أو أخرى أضفى الناس عليهم قدسية على أنهم يملكون قدرات خارقة ، وتعرضوا للإهمال أو كانوا موضع رعاية كعجزة .

ولكن حتى القرن الماضي ، حيث اخترع « البراي » فإنه بحسب علمنا لم يعمل شيء على نطاق واسع لإعانة العميان على قهر إعاقته العمى بشكل إيجابي . ففي زماننا ظهر كلب القيادة ، والكتاب الناطق وكثرة من الأجهزة والمخترعات . ولكن حين نتأمل مدى التقدم في المجالات الاجتماعية والعلمية والتكنولوجية فإننا ندهش من ضآلة ما قدمتم لإنجازه للتغلب على مشكلات العمى - اللهم إلا في بعض حالات متناثرة .

ويرجع التقدم المعاصر للعمل مع العميان الراشدين إلى مدارس العميان التي أسست في القرن الماضي . كان لا بد من عمل شيء لمساعدة خريجي هذه المدارس ، فظهر المتطوعون الذين يقرأون عليهم ، ويصاحبونهم ، وينظمون لهم البرامج الترفيهية إلى غير ذلك : وقد يستطيع بعض علماء الاجتماع في المستقبل أن يقدموا تفسيراً لهذه الظاهرة الغريبة ، وهي أنه بعد كل هذه

السنين التي مرت على المدارس الخاصة والبرامج الخاصة بالعميان فلا يزال الوهم المتعلق « بتعويض » سحرى أو « بحاسة سادسة » يعوق نجاح أى عمل بناء لمساعدة العميان على استخدام حواسهم الباقية : إن الأعمى حديث العمى كان من الممكن أن يطلب بعض الإرشادات فيما يتصل بتعرف الأصوات من أعمى قديم العهد بالعمى ، ولكن قبل ظهور برنامج الجيش الأمريكى للعميان من ضحايا الحرب العالمية الثانية ، فإنه لم يتم عمل شيء فى سبيل تقديم خدمة منهجية للعميان فى هذا المجال الحيوى جدا ، وحتى فى الوقت الحاضر فإن العمل فى هذا الاتجاه لا يزال مقصوراً من الناحية العملية على مراكز التأهيل الشامل .

وكذلك الحال فيما يتصل بالتحرك ، فقد كان من الممكن أن يقدم أحد العميان بعض النصائح الثمينة لأعمى آخر فيما يتصل باستخدام العصا ، ولكن باستثناء ذلك كان على عميان المولد ومتأخرى العمى أن يكتشفوا بأنفسهم كيف يسرون أو كيف يتلمسون ويتحسون طريقهم أو يستسلمون لمصاحب . وكان كلب القيادة خطوة كبرى فى طريق التأهيل والاعتماد على النفس فى مجال التحرك ، وأخيراً بدأ ظهور التدريب العلاجى للتحرك ، والتدريب الفنى للمشتغلين بهذا العلاج : ولكن فى هذا المجال أيضا فإن كثرة من المؤسسات والجمعيات لاتزال غير ملوكة للأهمية الحيوية للتدريب الحركى ، ولا لضرورة تدريب حواس الأعمى من ناحية ، وتدريب الإخصائى من الناحية الأخرى .

وأىضا يبدو غريبا أنه حتى الآن قل أن يكون هناك إدراك للحاجة إلى التمييز ما بين مختلف مشكلات عميان المولد ومشكلات متأخرى العمى ، أو إلى التمييز ما بين مكتملى العمى والمبصرين جزئيا :

وربما استطاع علم الاجتماع فى المستقبل أيضا أن يقدم تفسيراً لهذه الظاهرة الغريبة ، وهى أنه فى عصرنا ، عصر الدراسات الاجتماعية والوعى بالتكامل ،

فإن عزل العميان لا يزال يلقي دفاعا حرا حارا ومساندة متصلة ، وربما استطاع هذا العالم أيضا أن يكتشف السرفى أنه حتى الآن قل من يدرك هذه الحقيقة وهي أن مشكلة العميان إنما هى مشكلة لإجماعية أقلية ، ومن ثم فإن هذه المشكلة تستلزم نفس النوع من الدراسة والتوعية العامة اللتين تستلزمهما مشكلة جماعات الأقلية الأجنبية والدينية . ولعله أيضا أن يفسر لنا السرفى أنه بينما الكثرة الكثيرة من المشتغلين مع العميان يناصرون الرأى القائل بأن العميان هم « مثل غيرهم تماما » ؛ فإن الكثرة الكثيرة من جمعيات العميان والعاملين بها لا يزالون دائبين على شن حملات دعائية من شأنها أن تدعم بطرق مختلفة الفكرة القائلة بأن العميان مختلفون غرباء جديرون بالثناء .

صحيح أنه قد تحقق الكثير من التقدم فى عديد من مجالات البحث والإحياء ، وذلك فى كل مجال على حدة . ولكن من الغريب هنا أيضاً أن ليس الجمهور فحسب وإنما أيضاً جمعيات العميان والعاملون فى الميدان يركزون جهودهم على مجال أو على آخر من مجالات الابتعاث على اعتبار أن فيه كل الكفاية . فالأمن المالى ، وإعادة التشغيل (فى أى عمل) والتحرك والكتب الناطقة ، أو « البراى » وأخيراً « التكيف » ، كل منها بدوره يغلب التشبث به على أنه الحل المكتمل لكل مشكلات العمى .

ومع ذلك فإنه رويداً رويداً ينمو الوعى من ناحية بأن العمى هو إعاقة متعددة الجنبات ويتطلب من ثم « ابتعاثاً » متعدد الأوجه ، ومن ناحية أخرى ينمو الوعى بأن كل أعمى هو حالة فردية له حاجاته الخاصة وتنبغى مساعدته بوصفه حالة فردية .

هذا الوعى من شأنه فى الغالب أن يفجر إمكانيات لا حدود لها ، وقد أشرنا إلى بعضها فى هذا الكتاب . كثير من هذه الإمكانيات متوافر بالفعل ، وكثير من الإمكانيات الجديدة تفتح كل يوم إلى حدّ أنه لا حاجة تدعو

بجال إلى أى ازدواج فى الخدمات فى أية منطقة ، ولا إلى أى تبرير لإضاعة الوقت والجهد والمال نتيجة تنافس الجمعيات . ومن زاوية المثل الأعلى ، ينبغى أن نعمل على خلق ظروف يجد فيها كل أعمى ، فى كل منطقة جغرافية ، قدرا مقبولا مما يحتاج إليه من مساعدة متخصصة وينبغى أن يتضمن ذلك مساعدة الأعمى فى عملية تأهيله ، وتوفير الخدمات المتصلة له من قبيل القارئى المتطوعين وتوفير المعلومات التى تلزمه فى مجال التشريعات وفى مجال المخترعات الجديدة ، كما ينبغى أن يتضمن ذلك على الصعيد القومى البحوث (١) الرامية إلى كشف وتجميع واستثمار إمكانيات جديدة لعملية الابتعاث .

وأحيانا ما نجد من المشتغلين مع العميان من يؤمن بأنه ما دامت جهودنا لتحقيق تكامل العميان ضمن المجتمع تلقى مزيدا من النجاح فإننا نقرب من اليوم الذى نجد فيه أنفسنا بغير حاجة إلى أية جمعية متخصصة ومفرغة لتناول مشكلات العمى . وركود تقدم العمل حديثا مع العميان يدل فيما يبدو على عكس ذلك تماما .

إن مواجهة مشكلات العمى من جانب الجمعية العادية المؤلفة من غير العميان ، إنما تستند إلى كثرة كثيرة من العوامل المجهولة إلى حد أن الأعمى الذى يتجه إلى مثل هذه الجمعية طالبا لإرشادها ومساعدتها فيما يتصل بإعاقةه عادة ما يجد نفسه ضائعا فى متاهة . فالجمعيات العامة غير المتخصصة سينتحم عليها أن تجيب على كل المشكلات الأخرى للأعمى ، ولكننا لا يمكن أن نتوقع أن

(١) قام « مكتب » لولايات المتحدة للتأهيل المهنى « أخيرا » بإجراءين هامين فى هذا المجال . الأول يتعلق بمنحة إلى معمل شياىج فى جروفتون بولاية كونكتيكت من أجل البحوث الخاصة بالسمع . والثانى يتضمن عقداً ضخماً مع معهد التكنولوجيا بولاية ماساشوسيتس من أجل البحوث الشاملة على مجالات الحواس ، وعن طريق هذا المكتب شجعت الحكومة الفيدرالية بحوثا رئيسية وقطبية فى كل مجالات التأهيل .

تكون لديها المعرفة والمهارات المتخصصة اللازمة لتناول مشكلات العمى عند الأعمى . وفضلاً عن ذلك فكلما ازدادت إمكانيات الابتعاث ازدادت الحاجة إلى هيئات من الخبراء الذين أحسن تدريبهم في مختلف المجالات ايمخرجوا إلى الواقع الإمكانيات للمزيد والمزيد من العميان الصغار والكبار ، الذين لا ينقصهم إلا البصر ، والذين لديهم مختلف الإعاقات الإضافية . وهناك أيضاً حاجة ملحة إلى عمل قائم بذاته من أجل تأهيل المبصرين جزئياً . وسوف تكون هناك لمدة طويلة حاجة إلى المتطوعين الأذكياء الذين أحسن توجيههم ليكونوا « عيوننا للعميان » في المواقف التي لاغنى فيها عن البصر .

في مثل هذا العمل المتعدد الجوانب هناك مجال لكل من الهيئات الحكومية والجمعيات الخاصة – فالهيئات الحكومية ، على نحو ما حدث في جهات مختلفة تأخذ على عاتقها بعض الأعمال التي قامت بها من قبل الجمعيات الخاصة على نحو طبيعي ، تاركة لهذه الجمعيات ، بما لها من طبيعة مرنة ، الحرية في تطوير إمكانيات جديدة . فعلى سبيل المثال كان على الجمعيات الخاصة في الماضي أن تمد العميان بالإعانات المالية لإسعافهم ، مما أجبرها على أن تركز جهودها بصورة أساسية على محاولة إعادة الأمن المالي للعميان . أما في السنوات الأخيرة فإن « إعانة الحكومة الفيدرالية للعميان المحتاجين » قد حملت قدراً كبيراً من هذا العبء مما منح تلك الجمعيات حرية العمل في الحديد من أشكال الابتعاث . إن تقسيم العمل بصورة أساسية وأكثر فاعلية ما بين الجمعيات في أية منطقة إنما يكون على أساس من الخدمات ، حتى يستطيع أى أعمى أن يجد مختلف أنواع المساعدة التي يحتاج إليها متوافرة له في جمعية من الجمعيات .

ولكن كلما مضى العمل مع العميان في تطوره فسنبكون بحاجة إلى أن ننتبه تماماً إلى هذا الأمر ، إن مهمة جمعيات العميان هي أن تتناول « مختلف مشكلات العمى » تلك التي تتصل بعملائها أو بالجمهور ، لا أن

نتناول « كل مشكلات الأعمى » . وكلما كان هناك تخصص في العمل ، بحيث نحيل الأعمى إلى جمعيات أخرى لتتناول ما لديه من مشكلات ليست بمشكلات عمى ، فإن كل حاجاته سوف يمكن إشباعها بصورة أكثر فاعلية وسوف تساعد مثل هذه السياسة على تحقيق تكامل الأعمى ضمن مجتمع المبصرين ، كما ستساعد على تحقيق تكامل عملنا وجمعيتنا ضمن الصورة العامة . فإذا نحن حاولنا أن نتناول كل مشكلات عملائنا ، لأنهم عميان ، فإننا سوف نقطع عنهم وعن أنفسنا كل نفع ممكن من أعمال الآخرين ومن وجهات النظر الأخرى . ونعيد القول بأن عملاءنا بعد ذلك يتعرضون لغزل لا مبرر له ، كما أننا أيضاً نغزل أنفسنا .

وفي مثل هذا الحقل المتطور نجد من الأهمية بمكان أيضاً أن نقوم أعمالنا وخدماتنا التي تخصصنا لها ، وأن نعيد تقويمها بصفة مستمرة فما نعتبره أهم عمل نضطلع به في فترة ما قد لا يكون أهم إسهام نستطيع أن نقدمه بعد ذلك حتى بوقت قصير . وعلى ذلك فإن المرونة الفطنة ، والانفتاح للتعلم ، يعدان أساسيين في العمل مع العميان اليوم .

ومن الضروري إلى أقصى حد أن نضطلع بتقويم عمالنا في ضوء إسهامه في تحقيق الهدف الذي ترسمه فلسفتنا الخاصة عن العمل مع العميان . إن عدد الخدمات التي تم تقديمها وعدد الأشخاص الذين تلقوا هذه الخدمات من جمعياتنا إنما يعد من الإحصائيات القيمة التي ينبغي أن تتوافر . ولكن خير معيار لتقدمنا في مجال الابتعاث للأعمى من ناحية ، وللمجتمع من الناحية الأخرى ، إنما هو في نهاية الأمر ليس عدد الأشخاص الذين قدمت لهم الخدمات بقدر ما هو عدد من قدمت لهم خدمات سديدة إلى حد أنهم لم يعودوا بحاجة إلى خدمات جمعيتنا . ففرضنا النهائي هو أن نساعد أكبر عدد ممكن من العميان على أن يحققوا بإزاء عمالهم هذا التكيف الذي يجعلهم يتحررون من الاعتماد علينا ، ومن الاعتماد غير السوى على أى شخص .

الفصل السادس العشرون

العاملون مع العميان

١ - العاملون من العميان أم من المبصرين

« إذا لم تقم جمعيات العميان نفسها بتشغيل العميان فيها كأعضاء ، هيئاتها العاملة فكيف لها أن تتوقع من غيرها أن يقوم بتشغيلهم ؟ وماذا يمكن أن يوحى به هذا فيما يتصل بثقتها في العميان ؟ » إن هذا الرأي قد تجدد الكثرة من المنظمات صعوبة في معارضته . ولكنه أحياناً ما يستخدم وسيلة لتبسيط سؤال معقد وهام : من الذى ينبغي تفضيله للعمل ضمن العاملين في جمعيات العميان - المبصر أم الأعمى ؟

إن الأعمى العامل في حقل العمى هو أول من تشغله هذه المسألة ، وبصورة جد مباشرة : ومن الممكن أن تكون خبير وظيفية أو خبير عمل مهني له هو في منظمة للعميان . ولكن من الممكن بلدرجة مساوية أن تكون خبير فرصة له في منظمة غير تلك . إن ظاهرة العثور على عمل للأعمى خارج حقل العمل مع العميان قد تنطوي في ذاتها على أهمية قصوى : من زاوية ثقة الأعمى بنفسه .

والأعمى العامل في حقل العمى ينبغي أيضاً أن ينظر إليه من زاوية النمو المطرد في المهارات . فالأعمى يمكنه بصفة خاصة أن يكون أحسن حالاً بكثير إن هو وجد عملاً خارج حقل العمى ، وذلك من أجل تطوير وتنمية مهاراته . فهو بسبب خبرته الخاصة كأعمى ، قد يكون غير قادر على العمل إلا مع العميان إلى حد يجعل من المستحيل عليه أن يحقق نمو

المهني الكامل في حقل العمى ما لم يتهيأ له في وقت ما من حياته العملية أن ينمي قدراته بخبرة مناسبة خارج حقل العمى تحت إشراف الإخصائيين .

وينبغي أيضاً أن نضع العميل موضع الاعتبار . قد تكون العلاقات ما بين الأعمى الأخصائي والأعمى العميل من خير العلاقات ، ولكن ظاهرة العمل وحدها لا تكفي لضمان ذلك . فأحياناً ما تحول ظاهرة المشاركة في العمى دون إقامة علاقات سوية . فقد يكون الأعمى الأخصائي راضياً عن نجاحه في التغلب على إعاقته إلى حد أنه لا يستطيع أن يتعاطف تماماً مع عميله حين يفضل أن يفشل في ذلك . أو ربما كان نجاحه عائقاً من وجهة نظر العميل . أو ربما تطابق مع عميله الأعمى إلى حد مشاركته إياه في مشاعره فلا يقتدر بذلك على تقديم العون للعميل في مواجهته لمشكلاته الأساسية . ولكن من الممكن أيضاً أن يكون هذا الأعمى الأخصائي مثالا ممتازاً وذا فهم مكتمل إلى حد أنه ربما يكون هو وحده الذي يستطيع مساعدة العميل الأعمى .

ومشكلة توعية الجمهور تدخل أيضاً في الصورة . فجمعيات العميان ينبغي ولا شك أن تضرب المثل لغيرها من الجمعيات ، وذلك بتشغيلها للعميان كعاملين فيها . ولكن تقوم أيضاً حجة مضادة مؤداها أن تشغيل العميان في جمعيات العميان ليس من شأنه أن يؤدي إلى التوعية الصحيحة للجمهور الذي قد يعتريه الشعور بأن المجال الرئيسي للعميان العاملين هو جمعيات العميان ، ومن ثم لا يتعرف الجمهور القيمة الحقة للعميان العاملين .

إن مشكلة العميان الأخصائيين التي غالباً ما تتخذ صورة منحهم الأسبقية ، (مما يشبه كثيراً أسبقية المحاربين القدامى) . هذه المشكلة ينبغي دراستها في ضوء آثارها على العلاقات ما بين الجمعيات ، وعلى العلاقات ما بين مختلف العاملين عميان ومبصرين ، وعلى هيئة العاملين

بالجمعيات . فمن ناحية نجد أن الرفض المطلق لتشغيل عميان جدد أو لترقية العميان العاملين بالفعل يخلق عند الأعضاء العاملين من العميان شعوراً طبيعياً بالحق . يتحول الحق متجهاً ضد العاملين المبصرين الذين « يخطفون منهم الوظائف » . ومن ناحية أخرى إذا كانت سياسة الجمعية تقوم على منح امتيازات خاصة للعاملين من العميان ، وعلى ترقيةهم فوق العاملين المبصرين الذين يؤدون عملاً ممتازاً ، فإن العكس يحدث ، إذ يتحول حق المبصرين متجهاً ضد العميان .

في كلتا الحالتين تتحطم الروح المعنوية لهيئة العاملين مع العميان وتنخفض القدرة على العمل لصالحهم . ويمكننا في سهولة أن نتبين الآثار السيئة لمثل هذا التدهور في المعنوية على نمو جمعيات العميان . فسرعان ما تعجز عن اجتذاب عناصر طيبة جديدة ، سواء من العميان أو المبصرين ، بسبب الصدام داخل الجمعيات . فالعاملون سواء من العميان أو من المبصرين (تبعاً لما تكون عليه سياستنا) يعلمون أن ليس لهم من مجال للترقي في جمعياتنا ، ومن ثم فإنهم لا يأتون إلينا على الإطلاق ، ويأتون لفترة قصيرة فحسب وأخيراً فإن الالتزام المتواصل والمسرف بتشغيل العميان في جمعياتهم أو بمنحهم تفضلاً مسرفاً يمكن أن يؤدي إلى نوع من « التلقيح الذاتي » في عملنا . فعمالنا والسابقون يصبحون أخصائيين عندنا ، وهؤلاء بدورهم يتولون أمر عملائنا الجدد ، أو يضعون السياسة الخاصة بتوجيه العملاء الجدد . وهكذا قلما يفتح الطريق لدم جديد ، أو أفكار جديدة ، تدخل إلى الجمعية . ويتضاءل شيئاً فشيئاً احتمال التقويم الموضوعي أو إعادة التقويم بالنسبة للجمعية في ضوء التقدم المتحقق في الحقل . إن الأخصائيين الجدد معنا لا تتوافر لهم الخبرة العريضة ولا الإشراف العريض اللازم لنمو المهارات الفردية ، وتعجز الجمعية بذلك عن الإفادة من الأخصائيين الذين لهم مثل هذه الخبرة الرحبة .

بذلك تتعقد المشكلة إلى حد بالغ ، وتزداد تعقيداً لأنها تتعلق بأكثر من نوع من الأخصائيين ، وبأكثر من نوع من العمل أو المستقبل المهني ؛ ففي جمعيات العميان الراشدين يتم التشغيل ، ضمن غيرهم ، للإداريين والمشرفين والأخصائيين الاجتماعيين ، والمواسين ، والمعلمين المنزليين ، والمحللين القانونيين ، والموجهين ، ومديري الأعمال ، وممثل وممثل العلاقات العامة ، والباحثين ، والمستقبلين ، ورؤساء الورش ، والبانين ، والمختزلين ، ومستشارى العمل ، وعملاء التعيين .

ومن حيث إن كل واحدة من هذه الوظائف تتوافر أيضاً من الناحية العملية في جمعيات أخرى غير جمعيات العميان ، فإن مهمتنا الأولى العظمى هاهنا هي إقناع تلك الجمعيات الأخرى بأن تفتح الفرص أمام العميان . ويبدو أن هذا الواجب يقع على عاتق جمعيات الخدمة الاجتماعية أكثر مما يقع على عاتق غيرها . فبفضل ما يتوافر في هذه الجمعيات من تدريب فإنه ليس للمشتغلين فيها أن يستسلموا أمام العوائق الانفعالية التي تسد الطريق أمام الأخصائيين من العميان ، وهي العوائق التي تواجهنا في القاعدة الجماهيرية ؛ ومما لاشك فيه أن جمعيات الخدمة الاجتماعية العامة ليس لها من عذر يذكر في تشجيعها للمشاعر التي تحول بينها وبين استخدام العميان ذوى الكفاية (كالأكفاء من الأخصائيين الاجتماعيين العميان مثلاً) . ومع ذلك فإنه من الغريب حقاً أن نجد أن بعض جمعيات الخدمة الاجتماعية المستنيرة في الظاهر هي التي توحى للعميان الأخصائيين بأن يقصروا عملهم على حقل العمل مع العميان .

وبالنسبة للكثيرين من القراء يبدو الأمر وكأنه تماماً « نظرية حسنة » ، وذلك لأنهم يستنكرون الظاهرة الحالية ، ظاهرة التمييز ضد العميان الأخصائيين . (وبينما هذا الموقف يستحيل التحكم فيه من جانب أية ولاية أو حكومة تسند إلى سياسة عملية للتشغيل العادل ، لإجبارياً كان أم

غير إجبارى ، فإنه فى كثير من الحالات تقوم جمعيات العميان بإنشاء « مجلس مناهضة التمييز » فى المنطقة ، ويختص بتلقى الشكايات الخاصة « بالتمييز » على أساس العمى ، ويتولى هذا المجلس الدفاع الملائم عن أصحابها أمام المسئولين فى الحالات التى تعرضت لمعاملة غير عادلة (٥) وبالنسبة للكثيرين من العميان الأخصائيين فإن هذا « التمييز » يعد الدفاع الأول لهم للبحث عن وظيفة فى جمعية للعميان . وواضح أنه لا يمكن التخلص من الطابع القهرى لهذا الدفاع إلا إذا استطعنا أن نفتح للعميان فرصاً كافية فى مجالات أخرى ، بحيث تتوافر لهم حرية الاختيار .

وبالنسبة إلى عميان آخرين يكون دافعهم القوى لذلك ما يفترضونه من أن العمل فى جمعيات العميان يحقق لهم مشاعر الأمن ، ففى اعتقادهم أن جمعية العميان هى أقل استعداداً لأن تطردهم بالقياس إلى غيرها من الجمعيات . ومن العسير أن نعترض على فكرة السعى إلى أمن العمل ، وإن كان لا يجوز لهذه الفكرة أن تصبح الدفاع الأول للاختبار بين الوظائف ؛ ولكن فكرة أن جمعية للعميان يمكن أن تنزل بمستواها حتى لا تتخلى عن عامل (لمجرد أنه أعمى) ، هذه الفكرة من شأنها أن تدعو الجمعية إلى مراجعة النفس . ونحن لانعنى بذلك أننا ينبغي أن نكون قساة ، ولكن نحب أن تكون سياستنا فى التشغيل هى هى بالنسبة إلى العميان والمبصرين على السواء ، مع الاعتراف بالمساواة ما بين العميان والمبصرين فى الكرامة والمسئولية .

وهناك عميان آخرون أيضاً يكون دافعهم للبحث عن وظيفة فى جمعيات العميان شعورهم بأن هذه الجمعيات وحدها هى التى يمكن ألا تقبلهم حقاً ، وهما نجدنا نقرب جداً من حالة الاستسلام التى ينطوى عليها العزل . ولا يجوز لنا أن نقلل من شأن الصعوبات التى تؤدى إلى هذا الاستسلام — وهى صعوبات تنشأ إلى حد كبير من اتجاه المبصرين ؛ ولكن الحل لا يمكن أن

يكون في الاستسلام للموقف ، وإنما في العمل مع البيئة التي تثير الصعوبات ومع الفرد الذي يمكن أن يكون مستولاً بدرجة ما .

وأحياناً أيضاً ما تكون هناك دوافع لا شعورية عميقة تدفع العاملين إلى البحث عن عمل في الجمعيات التي يعاني عملاؤها نفس الإعاقة . وأحياناً ما تحول هذه الدوافع العميقة دون حسن أداء هؤلاء الأخصائيين لعملهم سواء لصالح الجمعية أو لصالح عملائها العميان .

ولعل أكثر الدوافع شيوعاً ، أو على الأقل أكثر التبريرات شيوعاً ، بالنسبة إلى تشغيل العميان في جمعيات العميان هو ما يقال من أن تجربة العمى تجعل صاحبها أقدر على فهم مشكلات العميان الآخرين ، أو - كما يقال غالباً - أقدر على فهم مشكلات العمى . وهذا الاعتقاد ينطوي على مغالطة أساسية . فهما يكن من الخبرة في معاناة كارثة ما ، فليس فيها ما يعيننا على فهم الآخرين . إننا نكون ولا شك في موقف أفضل بكثير في تبين مدى الهول الذي حل بالآخرين الذين يعانون نفس الكارثة ، ولكن ذلك بذاته لا يضمن أننا سنحسن فهم « الآخرين » الذين يعانونها .

« الأعمى وحده هو الذي يستطيع فهم الأعمى » : تلك عبارة أخرى كثيراً ما تتردد على مسامعنا في هذا المقام . وينبغي أن نضع إلى جوارها العبارة الأخرى : « ليس بوسع كل أعمى أن يفهم العميان » . صحيح أنه ليس بين المبصرين من يستطيع أن « يعرف حق المعرفة ماهية العمى » . إننا نستطيع أن نستشعر ماهية العمى خلال وقت قصير ، ولكن شعورنا هذا لا يكون مكتملاً ، وسرعان ما نهرب منه بالضرورة لائذين بحياتنا المبصرة . إن المبصرين الذين ينسون هذه الحقيقة ، والذين يسلكون وكأن لديهم وعياً مكتملاً بماهية العمى ، هؤلاء يمثلون تهديداً حقيقياً ولا يجوز أن يسمح لهم بالعمل مع العميان : إن ما يلزم لفهم العميان إنما هو

فهم « الأشخاص » - وليس في العمى أو البصر ما يضمن تحقق هذا الفهم (كما أنه ليس فهما ما يحول دون تحققه) .

وإذا كانت خبرة العمى لا تضمن لأي أعمى أن يفهم العميان ، فإن هذه الخبرة لا تصلح أن تكون بديلاً عن التدريب الجيد . فكون الشخص أعمى لا يؤهله لأن يكون أخصائياً اجتماعياً (بغير تدريب) أو مرشداً نفسياً مدرساً (بغير تدريب) ، أو إدارياً مدرساً (بغير تدريب) بأكثر مما يؤهله لأن يكون أخصائياً في طب العيون . ولكن من الصحيح أيضاً أن الكثيرين من العميان الذين أحسن تدريبهم يبحثون عن فرص للعمل مع العميان ، لأن اهتماماتهم الخاصة تتجه بهم إلى هذا المجال . فمن الممكن لهؤلاء العميان أن يبذلوا الكثير من أنفسهم في هذا العمل بالقياس إلى الآخرين الذين لا يرون فيه أكثر من أنه عمل كغيره . فإخصائي الكوارث الذي عاش الكوارث فلما يكون مجرد موظف . وعليه فمن الممكن جداً أن تكون دوافع الأخصائي الأعمى من خيرة الدوافع (سيان في المستوى السطحي أو في الأعماق) . ومن الممكن أن تكون استعداداته فائقة ، وأن يكون تدريبه وخبرته من أعلى مستوى .

ومع ذلك فمن المحتمل أن يجد من جمعياتنا صعوبة في تشغيله . وفي ذلك ما يتأدى بنا إلى وجه آخر من هذه المشكلة المعقدة ؛ ونعني الأسباب التي تجعل بعضنا ممن يرأسون جمعيات العميان يستبعدون تماماً موضوع تشغيل الأخصائيين العميان ضمن إخصائيتهم .

فبعض المبصرين ممن يديرون جمعيات العميان هم ولا شك لا يؤمنون في واقع الأمر بكل ما يعلمونه خاصة باقتدار العميان أو « سويتهم » . وليس يعيننا كيف يقومون « بتعقيل » هذا الموقف بالنسبة إلى أنفسهم ، فإنهم يقطعون حالة أعمى فاشل ، ويأخذون في تضخيم فشله ثم يعممون حكمهم على جميع الأخصائيين العميان . أو هم بنفس الطريقة يقومون

بالتعميم ابتداء من المشكلات الشخصية عند فرد واحد كان من العسير التعاون معه في إحدى الجمعيات .

ويحتمل أيضاً أن تكون مقاومة بعض رؤساء الجمعيات لفكرة تشغيل الأخصائيين العميان راجعة إلى سبب مستتر هو أن هؤلاء الأخصائيين يمثلون تهديداً لمراكزهم في المستقبل . أو ربما كان السبب ، وهو الأكثر احتمالاً ، أن يجدوا في هؤلاء العميان ما يهدد شعورهم بالأمن ، وذلك لما يوحى به وجودهم عند الرؤساء من مشاعر القصور وعدم الكفاية . وقد يبدو ذلك إمعاناً في مجال التعليل ، ولكن هذا مع ذلك لا يعدو أن يكون استجابة بشرية . ذلك ما يمكن أن يشعر به لاعب الجولف المبصر وهو يشهد لاعب الجولف الممتاز الأعمى ، وما يشعر به لاعب التنس الصحيح البدن أمام خصمه الممتاز المبتور الذراع الآخر . فنجاح البعض على الرغم من إعاقاتهم يعد أمراً يفوق الاحتمال بالنسبة لبعض الأشخاص الذين لا تتوافر لديهم مشاعر الأمن ، وليست لديهم إعاقات .

وفي كل حالات أخرى يرجع هذا الشعور العدواني ضد الأخصائيين العميان إلى شعور داخلي بالإثم . فعلى الرغم مما في ذلك من غرابة ، يمكن للإنسان أن يعانى الشعور بالإثم لأنه لا يعانى الإعاقة التي يعانىها الآخر . فمن الممكن أن نستشعر عدم جدارتنا أمام الله ، وندهش أنه أنزل العناء علينا وأعفانا منها . أو - وهو أمر مختلف تماماً - أن نستشعر مشاعر عدم الجدارة ونستشعر أن ذلك يستوجب عقابنا ، ومثل هذه المشاعر قد تحول دون تشغيلنا للعميان .

أضف إلى ذلك أن بعضاً منا كرؤساء جمعيات قد لا يكونون على استعداد لتحمل أية متاعب يمكن أن تنتج من تشغيل العميان . ومن الممكن ألا يكون لدينا من المرونة ما يمكننا من إدخال تعديلات في تنظيم العمل قد يتطلبها الأمر .

والعميان المدبرون للجمعيات يمكن أيضاً أن تكون لديهم من المشاعر ما يجعلهم يقاومون تشغيل الإخصائيين العميان بين هيئات موظفيهم ؛ فالعميان الآخرون قد يمثلون تهديداً لهم ولأنهم . وإذا لم يكن هؤلاء المدبرون قد تكيفوا لعهام ، فمن الممكن عندئذ أن يستشعروا رغبة قوية في لفظ العميان الآخرين ، وهي رغبة تعكس رفضهم لإعاقتهم ولذواتهم المعوقة ؛ وعليه فن الواضح أنه لا توجد إجابة واحدة بعينها في كل الحالات فيما يتصل باستخدام العميان أو المبصرين كعاملين في جمعيات العميان ؛ ولا تتوقف الإجابة فحسب على الأشخاص المعنيين ، وإنما أيضاً على مدى تقديم عملية تكامل العميان ضمن المجتمع العام ؛ فحين لا تكون هناك للعميان المقتدرين فرص عمل في أماكن أخرى فينبغي أن ننتبه بصورة خاصة إلى توفير هذه الفرص لهم في جمعياتنا - وذلك « متى » كانوا قادرين على الاضطلاع بالوظائف في نفس مستوى غيرهم ؛ ولكننا ينبغي أن نصر دائماً على أن التفوق للعمى هو المعيار . إن مصلحة الكثير من عملائنا العميان لا يجوز التضحية بها من أجل تحقيق إرضاء مباشر لواحد من العميان يبحث عن عمل .

وفي نفس الوقت ينبغي ألا نغفل أبداً عن الهدف من تعيين العميان الأخصائيين في الجمعيات العامة . (وفي الأعمال العامة والصناعة) بدلا من قصر تعيينهم على الجمعيات المتخصصة للعميان ؛ وينبغي أن نتأكد من أن كل أخصائي فني من العميان والمبصرين قد وجد التشجيع ليحصل على أفضل تدريب وخبرة ممكنة في هذه الجمعيات العامة قبل أن نأخذهم ضمن هيئات العاملين عندنا (وذلك لصالح الجمعية المتخصصة) . وينبغي أن نتذكر دائماً (اللهم إلا في الوظائف القليلة التي يكون فيها العمى - متى تساوت جميع الظروف - معينا إيجابياً) أن العمى لا ينبغي

أن يكون محل اعتبار إيجابياً أو سلبياً في تعييننا للأخصائيين في هيئة العاملين عندنا .

٢ - المتطوعون

يستطيع المتطوعون أن يكونوا خير معين للجمعية التي تمكنها ظروفها من أن تستفيد من خدماتهم . وفضلهم مزدوج ، فهم يقدمون خدماتهم للجمعية ولل فرد الأعمى .

والمتطوعون الذين يقدمون خدماتهم لا للفرد الأعمى وإنما للجمعية أحياناً ما يصعب الحصول عليهم - من أجل زيادة الاعتمادات المالية ، وإرسال الخطابات وتوزيع الرسائل ، وتنظيف المكاتب الخ . ذلك أنه لما كان عملهم لا يتصل مباشرة بالعملاء من العميان فإنه يكون قليل الحاذية . ومع ذلك فهذا العمل هو الذى يجعل وجود كثير من الجمعيات ممكناً ، ومن ثم فهو الذى يمكن الجمعية من كل عمل تقوم به لعملائها العميان .

أما المتطوعون الذين يعملون مع العميان مباشرة فلهم وظيفة واحدة ، ويجب أن تكتب بحروف كبيرة في مكان ظاهر في كل جمعية « وظيفة المتطوع هي أنه يقدم عينين للأعمى » .

وخلال قرون كان المتطوعون يؤدون هذه الوظيفة للعميان كأفراد ، سواء وهم يعملون تحت إشراف جمعيات العميان أو بعلاقاتهم التلقائية . ولكن هؤلاء المتطوعين وكذلك العاملون بالجمعيات والعميان كأفراد يعلمون أنه يوجد أيضاً متطوعون ممن يدخلون في منظمات مختلفة يتخطون حدود مهمة المتطوع بأن يأخذوا على عاتقهم مسؤوليات أخرى . ناسين أن مهمة المتطوع الوحيدة هي أن « يقدم عينين » .

ليست وظيفة المتطوع كعميل لمنظمة للعميان أن يقدم مساعدات مالية للفرد (ولو أنه من الجائز تماماً أن يطلب إليه أن يفصح للجمعية عن

احتياجات الأعمى الظاهرة للمال) . وليست وظيفته أن يعلق الهدايا على الأعمال للأعمى . كما أنها ليست أن يمده بالذكاء ولا هي أن يتخذ له القرارات . وليست هي أن يعلمه ولا أن يغير من معتقده^(١) . إنها ليست أن يجعل منه تابعا ، ولا هي أن يماكه ويهيمن عليه : لا ولا هي أن يستخدم الأعمى وسيلة لحل مشكلاته النفسية .

إن بعض تلك الأغراض حسن في ذاته . وبعضها الآخر قد يكون حسنا بالنسبة إلى فاعله . ولكن بعضها أيضاً رديء للمتطوع ، كما هو رديء للعميل . ولا شيء منها على أية حال هو من وظيفة المتطوع كمتطوع لجمعية للعميان ، اللهم إلا في ظرف خاص حين يتلقى المتطوع توجيهها بأن يأخذ على عاتقه أى غرض من هذه الأغراض في حالات الضرورة الاستثنائية :

فوظيفة المتطوع الذى يعمل مع حالات تجمع ما بين الشيخوخة والعمى قد تكون مختلفة . ووظيفة المتطوع الذى يعمل مع حالات تجمع ما بين التبعية التى لا شفاء منها وبين العمى قد تكون مختلفة أيضاً . وقد تكون هناك حالات استثنائية مستغربة (وهناك بالطبع الاستثناءات « المألوفة » منها أولئك الذين يتطوعون بمهارتهم الفنية - أخصائى طب العيون مثلا ، أو الطبيب العقلى) . ولكن وظيفة المتطوع الذى يعمل فى حقل العمى ينبغى أن تكون محددة تماما فى ذهنه وفى ذهن الجمعية التى تستفيد من خدماته . وتعمل مناشط المتطوعين على تعويض ثلاثة فقدانات (وبصورة أساسية

(١) قد يجد بعض القراء صعوبة فى فهم هذه العبارة الخاصة بالتعليم وتغيير المعتقد . لاني أقولها وأنا أعرف تماما أن كل إنسان إنما خلق ليجاهد فى سبيل الحق وفى سبيل « الله الحق » ، كما أعرف تماما حاجة الجنس البشرى والناس كأفراد إلى أن يعملوا الحق وما أمر به « الحق » ، وأعرف أيضاً التزام كل منا كأفراد بأن نساعد الأنداد الآخرين ، والجنس البشرى عامة كيما يسموا إلى الحق « وإلى الله الحق » ويجدوها . ولكننا نتكلم هنا عن وظيفة لم تطرح الذى يعمل مع العميان كما اصطلح عليها ، وهى وظيفة نعتقد تماماً أنها فحسب « تقديم العينين » .

فقدانين فقط) تلك هي فقدان الاتصال عن طريق المكتوب والفقدان الخاص بالتحرك (وإلى حد ما فقدان الخاص بفتيات الحياة اليومية) .

وفي مجال تعويض فقدان الخاص بسهولة الاتصال عن طريق المكتوب يمكن أن يكون عمل المتطوع مباشراً مع الأعمى بأن يقرأ عليه ، أو بأن ينسخ له مادة « البراي » أو بأن يقرأ له على كتب ناطقة كما يستخدمها فيما بعد . وفي الحالتين الأخيرتين لا يتصل المتطوع بالأعمى بشكل مباشر وإنما يعمل بدلاً من ذلك عن طريق جمعية للعميان تكون أغراضها نقل هذه المواد إلى العميان .

وربما كان أهم ما يحتاج إليه حق التطوع مع العميان هو إقامة جمعية تجريبية تعتمد على هيئة كبيرة من المتطوعين الذين أحسن اختيارهم وتدريبهم بحيث يمكنهم أن يذهبوا فرادى إلى بيوت عدد كبير من العميان لفترة مرسومة ومحدودة من كل أسبوع ليقروا على العميان - لا شيئاً ذا أهمية خاصة ، وإنما أية قراءة ترويحية أو غير ترويحية يطلبها الأعمى . هؤلاء « العيون البديلة » يمكن تبديلهم بانتظام فيتحركون إلى عميان جدد . إن عملهم يمكن أن يختلف عن عمل معظم المتطوعين ، فهو غالباً ما يصبح عملاً ميكانيكياً .

وابتعاث فقدان التحرك يتطلب خدمات المصاحبين والسائقين . ولكن اشتد السعى إلى توفير مثل هؤلاء المتطوعين بأعداد كافية لمواجهة الاحتياجات الواقعية فإن الجمعيات يجب أن تحترس فلا تقدمهم للعميان إلى الحد الذي يزيد من إنتاجهم للتبعية مما يسىء إليهم أكثر مما يعينهم .

هذا إلى أننا في بعض الأحيان ، وإن كان ذلك بصورة طارئة فحسب ، تمر بنا ظروف نستدعى فيها المتطوعين للمعاونة في بعض فنيات الحياة اليومية .

وعلاوة على الخدمات الخاصة بتقديم « العيون » فإن بعض جمعيات العميان تقدم متطوعين لمختلف الخدمات التي قلما تتصل - إن اتصلت على الإطلاق - بمعنى عملاتها ، ومثال ذلك تقديم مجالس الأطفال . ومع إدراكى أن المواقف الطارئة يمكن أن تغير من طبيعة الأشياء ، فإنى أعتقد أن مثل هذه الخدمات يمكن أن تقدمها بصورة أفضل الجمعيات العامة للمتطوعين ، تاركة لجمعيات العميان العمل الخاص بالابتعاث والإعانة البصرية ، وهو عملها :

ومعظمنا يفشل في تقديم العدد الكافي من المتطوعين ، ولكن هناك أيضا خطر تقديم عدد زائد من المتطوعين ، أو على الأقل خطر تقديم خدمات زائدة على الحد في حالة بعينها : إن العثور على الحد الفاصل ليس سهلا ، وحتى في حالة الجمعية التي لديها أفضل البرامج التطوعية نظاماً ، فإنه لا بد أن يتوافر ائزان كبير في الشخص الذى يدير البرنامج كىما يقدم الخدمات دون أن يجعل العملاء أكثر تبعية مما هم عليه ، أو مما كانوا يرغبون في أن يكونوا عليه .

وأهم شيء على الإطلاق في الخدمة التطوعية الجيدة هو نوعية المتطوعين - بحيث لا يكونون أناساً صالحين في خلقهم فحسب ، ولكن بحيث يكونون أيضاً صالحين لهذا العمل . إن لدى معظم الجمعيات نظاماً لاختبار وتدريب المتطوعين الذين سيعملون مباشرة مع عميان . ولكن بعضها يفشل في ذلك ، ومن خير الأمثلة المعروفة على هذا الفشل حالة عضو في إدارة جمعية كان يناقش حالة متطوعة كانت هناك توصية بشأنها . أن تتولى فتح البريد الخاص بالدخل في قسم مالى . وبعد المناقشة كان جوابه : إن الجمعية ليست لديها معلومات كافية عنها حتى تضعها في مكان يتيح لها أن تتسلم نقوداً ، وأنه بدلا من ذلك ، ربما يمكن الإفادة منها كقارئة للعميان .

إن اختيار المتطوعين الذين سيعملون مباشرة مع العميان ، إنما يمثل جزءاً أساسياً من برنامج التطوع . والاختيار يعني (بالإضافة إلى استبعاد أى أشخاص غير مرغوب فيهم من الناحية الخلقية ممن يمكن أن يكون تطوعهم نتيجة مصادفة) استبعاد كل الذين يمكن بطبيعتهم أن يسعوا إلى التسلط على الأعمى ، وكل الذين يمكن أن « يتطابقوا » مع الأعمى ، والكثيرين من المرهفين الذين لا يسمح لهم تكوينهم الانفعالي أن يعملوا في موقع تطوعي مباشر دون أن ينغمسوا على نحو ما في المشكلات الداخلية فعلاً للأعمى . ولا يعني الاختيار رفض هؤلاء الأشخاص ، وإنما تحويل جهودهم في مسالك أخرى يمكنهم فيها أداء خدمات تطوعية للجمعية ، ومن ثم خدمات غير مباشرة للعميان .

وينبغي أن نتنبه في هذا المجال كما في غيره إلى أن الناس يتجهون إلى « أعمال الخير » من هذا النوع أو ذلك استناداً إلى دوافع جد عديدة وجد متنوعة ، وقد يكون بعضها لا شعورياً تماماً . ولصالح عملائنا ينبغي لنا أن نحاول منع أى ضرر قد ينالهم بفعل نشاط هذه الدوافع اللاشعورية ، كما أنه ينبغي لنا ألا نمنع أية إرادة للخير من أن تأخذ ما تستحقه من فرصة ومجال .

والقيام بعملية الاختيار هذه يتطلب شخصاً غير عادى ، شخصاً يتميز بالاستبصار ، والتدريب ، والكياسة ، وقوة التمسك بالغرض . وكما نستوعب المتزنين وذوى الدوافع الطيبة واللائقين انفعالياً للمهمة فقد يكون علينا أن نستبعد بعضاً من خيرة أصدقائنا ، بل وبعضاً من أفضل أصدقاء جمعياتنا . وسواء أكان الاختيار صعباً أم غير صعب ، فإنه يستحق العناية رغم ذلك بسبب دلالاته بالنسبة إلى الاستقلال المتزايد لعملاء الجمعية العميان .

وبالإضافة إلى الاختيار فإن لتدريب المتطوعين أهمية قصوى . وعادة

ما يتضمن التدریب مقررأ فی المعلومات العامة عن هدف العمل مع العميان وعن الفلسفة الخاصة بالعمل التطوعی وعن تعريف الجمعية بالجمعية نفسها . وطوال فترة عمل المتطوع مع الجمعية تعطى له مقررات تجديدية حتى يظل متتبعا للتقدم ، أو للتغير فی حقل العمل مع العميان .

وفی بعض الحالات قد تفید الجمعيات إلى أقصى حد إذا هی أخذت على متطوعیها نوعاً من « العهد » بالنشاط المحدد أو على الأقل ولهجت « قانون إیمان » للمتطوعین حتى تكون على ثقة منذ البداية أن المتطوع يفهم حقاً حدود عمله المرسومة له وینتوی ألا يتخطاها - سواء فی ذلك حدود الوقت أو نمط العمل . والكثیرون من العميان خبروا المتطوع الذي ینمح أو البداية وقتاً للأعمى يفوق کثیراً ما یطلب إليه أن ینححه ، ثم یناقص جهده تدریجياً أو فجأة إلى أن ینقطع فلا یراه أحد .

ويهدف برنامج المتطوع أيضاً إلى تحقیق الإشراف الجید ، فالمتطوعون ینفهی أن يتعلموا أن یقدموا تقریرات عن عملهم إلى الجمعية . وليس من المهم أن یدلوا ذلك غیر ضروری ، أو إلى أى حد یدلوا لهم كأنه مزید من تعقيدات الروتين ، فإنه من الأهمية بمكان لیس فحسب أن تؤدی الجمعية وظيفتها عن طریق متطوعیها ، وإنما أيضاً أن تتبین أنها تقوم بأدائها . وبالإضافة إلى تقریرات المتطوعین عن نشاطهم . فإنه ینبغی أن یطلب إليهم أن یکتبوا تقریرات عن أى موقف غیر عادى قد یؤثر فی العميان الذين یعملون معهم ، حتى تستطیع الجمعية أن تقرّر مدى حاجتهم إلى خدمات إضافية .

والإشراف على المتطوعین یتضمن أيضاً سحب المتطوعین من العمل مع حالة خاصة ، أو سحبهم من العمل التطوعی عامة ، متى كان ذلك لسبب ما هو الأصح ؛ مثال ذلك متى أخلفوا المواعید بغير سبب ، أو متى ثبت

عدم اقتدائهم أو متى أظهروا حماسة مسرفة لا تتفق مع صالح الأعمى الذى عينوا. لمعاونته .

عهد المتطوع^(١)

أتعهد أنا بأن أكون عيني الأعمى .

سأحاول بكل قواى أن أتحرر من المشاعر الزائفة عن العمى - المشاعر التى تعتبر العميان غرباء أو مختلفين - المشاعر التى تعتبر أن لديهم حاسة سادسة ، أو تعويضاً خارقاً - المشاعر التى تعتبر أنهم عاقرة أو أنهم من ناحية أخرى ذوو شخصيات ملتوية أو معقدة .

سأحاول أن أتحقق تماماً مما بدأت فى معرفته ، من أنه لا وجود لنمط شخصية سائد بين العميان . وسأحاول دائماً أن أنظر إلى كل فرد أعمى أتصل به على أنه فرد إنسانى له شخصية إنسانية فردية .

أعهد بأننى فى حديثى عن عملى لن أحاول أن أذيع إشفاقاً زائفاً تجاه العميان ، ولكن بأن أعلم الناس حقيقة العمى فحسب ، وهى أنه إعاقة بالغة القسوة يستجيب لها البشر كل بطريقته الفردية .

وستكون علاقتى الفعلية بالأعمى الذى عينت معه هى العلاقة التى حددت

لى ؛ إننى أتقبل هذه الفرص التطوعية حتى أساعد الأشخاص العميان وبعبارة عامة فإن أفضل مساعدة حققة هى التى أكون فيها مجرد « أعين

(١) فى هذا ما يبرز بما لا يقاس تفوق الأنظمة الاشتراكية . فهنوم التطوع ينطوي ليس لحسب حل معاني المهانة ، وإنما يقيم من الناحية العلمية مشكلة الدوافع العميقة التى تدفع بالتطوع إلى معاناة هذا كله ، فإليك بما يتضمنه ذلك من إضاعة استقلالية الأعمى عبر هذه البرامج التى تتوهم حمايته . (المترجم) .

بديلة . ومعنى هذا أنتى سأمتنع عن كل محاولة للتأثير فى حياة أو أفعال الشخص الأعمى - تاركاً هذا لغيرى ممن يناط بهم ذلك ، لأننى لن أحاول أن أكون أما أو أباً أو أختاً أو أخاً للشخص الأعمى . ولن أسمح لنفسى بأن أحسن عليه بالمال . ولن أملكه أو أهيمن عليه . ولن أجعله فى تبعية بالنسبة لى ، ولن أكون فى تبعية بالنسبة إليه . أتعهد أنا بأن أكون عيني الأعمى - وبالأحرار أن أكون أكثر من ذلك . فإذا فعلت ذلك ، وفعلت ذلك لوجه الله ، فإن وقتى يكون حقاً قد بذل حيث ينبى - بفض النظر عن وجود أية مشكلات أخرى يمكن أن أكون أنا راغهاً فى حلها .

٣ - عصابة العينين كإداة للتدريب

توجد كثرة من نقط الخلاف فى حقل العمل مع العميان - على نحو ما لاحظ القارئ ولا شك ؛ وليست أقل هذه النقاط تلك الخاصة باستخدام عصابة العينين . فهى فى نظر البعض تعد أداة بسيطة يمكن أن تعين على تعريف المبصرين بالعمى . أما فى نظر آخرين فيعد استخدام عصابة العينين بهذا الغرض نوعاً من اللعب التمثيلى جديراً بالازدراء من جانب الأخصائين الجادين .

وتكشف التجربة عن أن عصابة العينين يمكن أن تكون إضافة ذات قيمة كبيرة فى أى برنامج تدريبي لتحقيق الأغراض الأربعة التى سنوضحها . ولكن خطأ من أعظم الأخطاء جسامة غالباً ما يرتكب حين تستخدم هذه العصابة دون اتخاذ التحفظات اللازمة .

وسوف نذكر التحفظات الخاصة التى يتطلبها كل استخدام ، ولكن التحفظ الضرورى دائماً هو أنه لا يجوز استخدامها أبداً بفكرة أنها ستعلم أى شخص « معنى الأعمى » . فإما من استخدام لعصابة العينين مهما طال به الوقت يمكن أن يعلم المصير « ما هو العمى » . فقيمتها تنحصر ببساطة فى

قدرتها على أن تضع في متناول المبصر بأقصى سرعة ، بعض المشكلات الواقعية » للعمى . فالشخص المعصوب العينين يستطيع أن يتعلم بعض الصعوبات المتصلة بفقدانات من قبيل فقدان التحرك ، وفقدان سهولة الاتصال عن طريق المنطوق ، وفقدان فنيات الحياة اليومية ، بما لا يستطيعه بطريقة أخرى . ولكن هذا الشخص لا يستطيع أبداً أن يمسك بخبرة العمى عن طريق خبرة العصابة . وهى بهذا المعنى لعب تمثلى .

(١) استخدام عصابة العينين للمشتغلين الجرد . من المسلم به أن المشتغل الحديد مع العميان ، سواء أكان متخصصاً أم متطوعاً ، سيقضى فترة تدريبية من الغرس العقيدى المنصب على المشكلات الخاصة بالعمى وعلى الفنيات الخاصة اللازمة فى الحقل . ويمكن تقصير هذه الفترة إلى حد كبير ، والزيادة من فاعليتها إذا استخدم المشتغلون عصابة العينين فى الجزء الأكبر من الدراسة (١) .

ولا حاجة هنا إلى أى تحفظ خاص سوى الإلحاح على هذه الحقيقة ؛ وهى أن استخدام عصابة العينين لن يعلم المبصر معنى العمى ، ولو أن العاملين المؤهلين بدرجة كافية فى حقل العمى لا ينبغي أن يكونوا بحاجة إلى مزيد من الإلحاح على هذه الحقيقة . والواقع أن المشتغل الذى يتحدث بعد هذه الدراسة قائلًا إنها منحته خبرة العمى إنما يدل بذلك على أنه لا ينتمى إلى الحقل .

(٢) استخدام عصابة العينين فى نوعية جماعات من الجمرور . إن استخدام عصابة العينين مع أى جماعة كبيرة من الجمهور كعين على تعليمهم بعض الحقائق عن العمى يمكن أن يكون مفيداً . ولكن ينبغي أن نتذكر أن

(١) كل أعضاء هيئة التدريس فى « مركز سانت بول للتأهيل » يلبسون عصابة العينين يوماً واحداً فى الشهر على الأقل ، كتذكرة متكررة لهم بمشكلات ربما يتعرضون لسيانها .

المتحدث الذى يوضح بحق فى مثل هذه الظروف بعض الدلالات العميقة والمرعبة عن العمى إنما يخطو فى أرض خطيرة ، فمن الممكن أن يظهر الملغ وينتشر فى جمهور من المستمعين المعصوبى العينين . ومع ذلك فإنه ما لم يعط المتحدث هذا الإيضاح العميق فمن المحتمل أن ينصرف الكثيرون من الناس السطحيين ولديهم الطباع بأنهم قد عرفوا معنى العمى . ويمكن استخدام عصابة العينين بصورة مفيدة مع جماعات من الجمهور ممن ينبغي تعليمهم الشيء الكثير عن العمى فى وقت قليل : ولكن استخدامها عندئذ يلبى أن يكون لفترات قصيرة ، كما أنه لا يجوز السماح للتوتر الانفعالى بأن يشتد بدرجة مسرفة .

٣ - استخدام عصابة العينين لمساعدة أسر الصابين حديثا بالعمى .

إن استخدام أعضاء أسرة الشخص الأعمى لعصابة العينين ، وإن كان يمكن أن يكون جد معين فى تعريفهم ببعض المشكلات الواقعية ، للعمى ، إلا أنه مع ذلك ينبغي أن يحاط بتحفظ أشد . وأهم ما فى الأمر أننا يلبى أن نتذكر أن خبرة العصابة يمكن أن تكون بالنسبة لبعض الأشخاص الملتصقين بالشخص الحديث العمى صادمة إلى حد يفوق احتمالهم . فبالنسبة إلى أسرة الأعمى ، من الأهمية القصوى بمكان أن يعرفوا تماماً هذه الحقيقة ، وهى أن وضع العصابة لفترة قصيرة لن يعلمهم ما هو العمى . وينبى أن نوضح للأعمى نفسه جيداً أن أعضاء أسرته لا يعانون من مثل هذا الوهم . فقل أن يوجد شيء يشيع الاضطراب فى العلاقات الأسرية مثلما يثريه عضو مبصر يبدو أنه يعتقد ، أو حين يعتقد بالفعل ، أنه يعرف تماماً دلالة الإعاقة عند الأعمى ،

٤ - استخدام العصابة لتخفيف وقع الزاثرين للبصرين على برنامج للعيان

إن الاستجابة الانفعالية الشديدة للعمى من جانب نسبة عالية من

الجمهور ، وإن عدد من يتصل منهم بأشخاص عيان بصفة منتظمة ، من شأنهما أن يجعلنا من مشكلة الزائرين لجمعية أو معهد للعميان مشكلة كبرى .

فمن ناحية ترغب الجمعية في التعريف بعملها الخاص وفي توعية الجمهور بالمشكلات العامة للعمى وبعض الطرائق المتاحة للتغلب على هذه المشكلات ، ومن ناحية ما فإن كل ما يجعل من مكان إقامة العميان أو من مكان عملهم ما يشبه « البيت المفتوح » من شأنه أن يقيم اتجاهها إلى وضع العميان في موقف عرض كما لو كان المكان متحفاً أو حديقة للحيوان ، مما يسبب أبلغ الإساءة إلى العميان الواقعين تحت الملاحظة ، وبما لا يعين بدرجة تذكر على التمهيد للتوعية القيمة للجمهور .

وبصورة عامة فإنه ينبغي أن تمتنع تماماً كل زيارات المشاهدة للجماعات غير المتخصصة . ولكن إذا أتت مناسبات يتحتم فيها استقبال جماعات من الجمهور في مؤسسة يزاول فيها العميان نشاطاً ، فإن قدراً كبيراً من صدمة الموقف عند العميان يمكن تفاديه ، كما يمكن أن تكون الزيارة أكثر فائدة ، إذا استخدمت مع الضيوف عصاوية العينين .

إن مركز سانت بول يقصر زيارته على ذوى الاهتمام الفنى بالبرنامج ، وذلك إلى حد أنه لا يسمح لغير الزوار الفنيين أن يدخلوا إلى الفصول في أوقات العمل . وحتى في حالة الزوار الفنيين فإنه يحتم عليهم أن يضعوا العصاويات على عيونهم .

والأسباب التي تستند إليها هذه السياسة هي أن الزائر الفنى المعصوب العينين لديه فرصة أكبر لأن يتبين بالفعل ماهية ما يعطى للأعمى من تعليم ، كما أنه تتحقق له ألفة - ربما على الرغم منه - ببعض المشكلات الخارجية المتصلة بالعمى ؛ من قبيل مشكلات التحرك ، ومشكلات الاتصال ، ومشكلات فنيات الحياة اليومية . وكذلك فإنه لا يتشبه انتباهه بأمور

صغرى نسبياً من قبيل مظهر الأعمى في موقف الفصل (وهذا مهم بصفة خاصة بالنسبة للفنى الذى لم يعود العمل مع العميان ، والذى يمكن أن يخصص كل انتباهه ليرقب ويبصر « حركات العميان ») ، وهو كذلك يقتدر على أن يرى الفصول وما يوجد بالمركز من وجهة نظر الأعمى الذى يتدرب ، وهو أيضاً يسمع تلاميذ التدريب وهم يعملون بحرية أكبر مما لو لم يعرفوا أن الزائر معصوب العينين (وبذلك يلاحظ مركز التدريب في ظروف أبعد عن التكلف والاصطناع) .

وهذه السياسة تعنى أيضاً أن العميان تحت التدريب لا يرتبكون أو يتشتت انتباههم أثناء عملهم في حضور الزوار الذين يتسمعون استجاباتهم - وهذه نقطة هامة لتحقيق جو من الانطلاق التام في الفصل : إن الأعمى تحت التدريب يعرف بذلك أنه ليس محل شفقة من جانب المبصرين الذين يأتون إلى الفصل للملاحظة . وهو يتحقق من أنه في هذا الموقف الخاص ، ولو أن الزائر المعصوب العينين ليس أعمى ، فإن الأعمى تحت التدريب يتمتع بميزة عدم الاضطراب ، في حين أن الزائر المعصوب العينين ربما كان متضيقاً بعض الشيء أو على الأقل جد مشغول التفكير في جودة الموقف إلى حد لا يمكنه من أن ينظر إلى الأعمى تحت التدريب من برج عال ؛

وإذا كان هذا يبدو نوعاً من الحماية المسرفة لعميان عليهم أن يعودوا إلى عالم المبصرين ، فإننا ينبغي أن نلاحظ أن العميان تحت التدريب يتدربون تدريباً كاملاً على العمل في أمن في حضور المبصرين ، وذلك حينما يتحركون حول المركز أو في الألفية ، وبين الفصول ، وعندما يتلقون التعليم الخاص بالتحرك في المجتمع المحلى العام . وحينما يقضون إجازتهم بين المبصرين في ظروف إبصارية عادية . ومع ذلك فإنه في الموقف الحميم في جماعة الفصل الصغيرة ، لا ينبغي أن نتوقع منهم أن يتصرفوا وهم في موقف العرض ،

أو أن يتعرضوا للملاحظة بفكرة أن الآخرين يتفرجون عليهم وكأنهم
أعماك للزينة ،

إن استخدام عصابة العينين كأداة تدريب يمكن أن يتعرض للمقاومة
سنوات طويلة من جانب قدامى المشغلين في حقل العمى . ولكنه سيأتي
مقاومة خاصة من جانب أولئك الذين يجدون استخدام هذه العصابة صادماً
لهم إلى حد لا يستطيعون تقبله ، إذ أنهم غير مستعدين لمواجهة
مخاوفهم الخاصة ،

ملحق

الرعاية الدينية للعميان

نتناول موضوع الرعاية الدينية للعميان في ختام هذا الكتاب ، لأننا لا يمكن أن نكون في وضع يسمح لنا بأن نرى هذا الموضوع في تمام سياقه إلا إذا فرغنا من تناول العمى ودلالته .

يرى بعض الناس أن الشيء الوحيد الذي يمكن عمله مع العميان من زاوية الدين إنما هو تقديسهم ، أو اعتبارهم قديسين . وهذا صحيح إذا قصدنا من ورائه أن الشيء الوحيد الذي يجب أن يفعله الدين بالشخص ، وبالتالي بالأعمى ، إنما هو أن يجعله قديسا . ولكنه يكون غير صحيح إذا قصدنا من ورائه أن الأعمى مدعو بصفة خاصة إلى القداسة دون غيره من بنى البشر .

ووجهة النظر الأخيرة هذه ليست من الدين ، وإنما هي خرافة . لأنها ليست خرافة صريحة أو مقصودة . ولكنها خرافة على كل حال ، خرافة لا تبتعد كثيراً عن خرافة القبائل البدائية التي غالباً ما توّله العميان ، معتقدة أنهم ، على نحو ما ، قبس خاص من الله^(١) . وكما هو الشأن في الخرافات بصفة عامة ، ترجع هذه الخرافة إلى مخاوف غامضة وانفعالات دفينية . يبدو الأعمى وكأن عنده قدرات تأملية لا يملكها الباقون منا . وربما لا تبتعد هذه الخرافة كثيراً في أصلها عن المعتقدات الجاهلة المتعلقة « بالعين الشريرة » .

ومع هذا المفهوم يسرى شعوراً بصدمة حين يقترف العميان إنما

(١) يرجع ذلك في رأينا إلى انتهاء الأضداد إلى مقولة مما يتضح في مستوى الفئوى في كلفى « عجز » و « إعجاز » انظر كتابنا « الأنماط الانفعالية للمكفوفين » ، وبقاى السانسة (مكتبة الأنجلو بالقاهرة) . (المترجم) .

وهو شعور يفوق كثيراً في شدته شعور الصدمة عندما يقترف المبصرون الإثم . والصدمة إزاء الإثم ليست بالشئ الكرويه ولا شك إذا ما حدث إزاء « كل » إثم وليس إزاء بعض أشكال الإثم فحسب ، إذا ما كانت صدمة إزاء الآثام التي يقترفها كل الناس ، وليست فحسب إزاء الآثام التي تقترفها بعض الجماعات . (نشأ هنا صعوبات في التعريف ؛ فبعض أنواع « الصدمة » إزاء الإثم ليست نتيجة اتجاه متزن يبغض أى تعد على الله بقدر ما هي نتيجة اختلال عصابي وروحانية مضطربة) . أما الشعور بالصدمة إزاء آثام العميان والرضا بآثام غيرهم من البشر فليس إلا ضرباً من الخرافة .

والذين يتوقعون من العميان أن يكونوا أكثر طهراً من بقية البشر ، أحياناً ما يفصحون عما يستشعرونه حين يقترف أعمى إثمًا يخرقه للقانون الإلهي : « هاهم أولاء قد حرموا حاسة وهبها الله للباقيين منا . ألا ترى أنهم كان ينبغي أن يكونوا قريبين من الله قريباً يجعلهم ينجحون من هذا ؟ » وليس هناك من منطق خاص يوضح ما يحاولون أن يقولوه ؛ إنه يبدو أكثر منطقية أنه إن كان هناك فارق ما بين الجماعتين فإن العيب الأكبر ينبغي أن يكون علينا نحن المبصرين ، علينا نحن الذين وهبنا الله أكثر في مجال الحواس . وإنه ليبدو أنه إن كانت هناك صدمة أكبر إزاء آثام جماعة عما هي إزاء الجماعة الأخرى ، فينبغي أن تكون بالنسبة لنا نحن الذين أعطانا الله الكثير . ولكن ليس للخرافة من منطق خاص .

ومتى آمنا بأن النمو في القداسة يقاس بدرجة قدرتنا على المطابقة ما بين إرادتنا وإرادة الله ، فربما أمكننا القول بأن العميان جماعة عندهم « فرصة أكبر للبلوغ إلى درجة أعلى في القداسة ، نعم نستطيع أن نقول له ذلك مع تنبهنا إلى عوامل أخرى كثيرة » ، وذلك على أساس أن إرادة الله قد تطلبت منهم ما هو أكثر - فبالنسبة لهم يتضمن الخضوع لإرادة الله خضوعاً لإرادته

التي سمحت بإصابتهم بإعاقة مروعة متعددة الجوانب لم يتعرض لها الباقون منا .

ويقودنا ذلك مباشرة إلى سؤال آخر : ما هو الاتجاه الذى يطلبه الله إزاء هذه الإعاقة ممن يعانونها ؟ الكثرة الكثيرة من الناس يعتقدون أن عليهم أن يقللوا ويهونوا من شأن إعاقاتهم ، وإلا فلأنهم لا يملون الخضوع الذى يطلبه الله . الكثرة الكثيرة يبدو أنهم يعلمون هذه الفكرة ذاتها للعميان : « انظروا إلى العمى بحسبان أنه ليس بهذا السوء الذى يبدو عليه : قولوا إنه عبء صغير . لا تفكروا فيه على أنه خطير ، وإلا ظهرتم بمظهر المنكر لإرادة الله » .

وإن هذا الاعتقاد الغريب بأن الله الحق يمكن أن يطلب منا إنكار الحق هو اعتقاد يصعب فهمه . فحينما تنكسر ذراع الواحد منا فإن الخضوع لإرادة الله لن يقتضينا أن نسمى ذلك أو نعتقد بأنه مجرد « التواء شديد ، — نوع من الشد العضلى فيما نظن » . وحين نعانى الألم فإن الله لا يتوقع أن الرضا بمشيئته ينبغى أن يجعلنا نقول أو نفكر أن ذلك ليس المأ فى الواقع — « نوع من الحكمة ، ضرب من الارتياح » .

وحين يصاب شخص بإعاقة العمى ، فلا ينتظر منه أن يقلل من وقع العمى (بأكثر مما ينتظر منه أن يبالغ فيه) : عليه بالأولى أن يقدر العمى على ما هو عليه ، فى دلالاته . فعندئذ فقط يمكنه أن يعطى معنى للقول : « أبانا ، لتكن مشيتك لا مشيتى » .

والمسيح فى آلامه لم يحاول أن يقلل من عذابه المروع . لقد صلى كما يتخلص من هذا العذاب : « يا أبتي إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس » . وهذه الصلاة للأعمى كل الحق فى أن يرددها حين يحاول أن يتخلص نفسه من إعاقته العمى — باستعادة البصر بكل وسيلة أخرى متاحة — وحين

يحاول أن يحقق تعويضاً بكل وسيلة ممكنة عن فقدان العمى حتى يجعل من العمى إعاقة أقل مما يمكن أن تكون عليه وفي النهاية مأوى المسيح ، كما يجب على كل معوق أن يحاول : « وفي هذا لن تكون مشيتي بل مشيتك » .

وحب الحق يقتضى أن ينظر الأعمى إلى إعاقته نظرة موضوعية كلما أمكن - متقبلاً في نفسه كل عبء العمى - ومقدراً في نفسه كيف أن كل طبيعته البشرية تتمرد على وجه بعد الآخر من أوجه العمى ، وكيف أن طبيعته ترفض وتتكبر وتكره عمله .

فإذا ما أخفى الحقيقة على نفسه فغالباً ما يكتشف أن الرفض والإنكار والكراهية إنما تراوح في اتجاه آخر وأنها يمكن أن تنقلب متجهة ضد الآخرين ، أو متجهة ضد نفسه ، بل ومتجهة أحياناً ضد الله ،

أما إذا نما الأعمى حقاً في القدامة ، وإذا ما كان عماء (حين يتقبله) أداة لهذا النمو - فعندئذ يمكنه ، في تقدمه نحو الله ، أن يصبح شكوراً على هذه الأداة « كثير هين وكعبء خفيف » من أجل المسيح . ومن الممكن في وضوح أن تتحقق الكراهية « الإعاقة » العمى مع الحب « لصليب » العمى .

ومشكلة وجود الشر الخلقى والمادى تجاهنا برمتها في مجال العمى مع العميان على نحو ما تجاهنا في كل احتكاك لنا بالأشخاص الذين يعيشون الألم أو الحرمان . ونقترح أن نهتد عن استخدام كلمة « الابتلاء » من حيث إن مدلولاتها تشير إلى القصاص ، ومن حيث إنها تتضمن أكثر من مجرد إرادة الله التي قضت بذلك ، ومن ثم فغالباً ما تؤدي هذه الكلمة إلى استنتاجات زائفة .

وهنالك الكثير من المفاهيم التي نحتاج إلى أن نستوضحها لأنفسنا

وللآخرين . فينبغي التمييز ما بين القداسة . الحقبة ومختلف أشكال القداسة الزائفة . فذلك « الاستشهاد ، الزائف » الذى يألفه كل أب اعتراف وكل موجه روى إنما نلتقى به بين العميان كما نلتقى به فى أى مجال آخره فالأعمى كالمبصر ممكن أن يلبس قناعا بحيث يجعل الناس يعتقدون أنه شهيد ، مستسلم تماماً لكل الضربات التى يكيها له الدهر ، وهو فى نفس الوقت يفسخ لنفسه مكانا يسيطر منه على آلامه ، على كل من حوله بحيث يجعل كل أهل بيته يدورون فى فلك مشيئته . إن الشهيد الزائف يعمل على استئثار مشاعر أم مروعة هند كل المحيطين به حين يسمحون لشكوكهم فى صدقه أن تقرب من السطح . ومع كل طفحة أم جديدة يزداد الشهيد سيطرة وتحكماً أكثر فأكثر ، والشئ المربع (وهو حقا مربع ومروع) فى هذا الأمر أن الأعمى بصفة عامة لا يأتى ذلك عن وعى . إن الأمر يجرى بكليته تحت السطح إلى درجة أن « الشهيد » نفسه يكون مقنعا (ويكاد يقتنع) بإنكاره لذاته . فالاستسلام هنا أو التظاهر بالاستسلام ليس متولدا عن الحب ، ولكنه على العكس رداء يخفى كراهية مروعة . إنه استسلام يغتلى بالكراهية ويغذى الكراهية .

ثم نأتى إلى الانحرافات الاجتماعية والتمردات بأشكالها المختلفة . ونحن نحتاج هنا إلى أن نتعلم متى تكون هذه كلها مجرد إزاحة لإنكار الإعاقة والتمرد عليها . فالذنوب المرتكبة ضد الكنيسة والمجتمع وضد قوانين الزواج الإلهية — غالبا ما نستطيع أن نستكشف بين جنورها ذلك التمرد العميق ذاته (الذى ربما لا يعبه الأعمى وربما اعتقد أنه ليس إلا ضربا من « الاستئثار » أو شيئا من هذا القبيل) ونعنى التمرد ضد العمى الذى لم يتقبله صاحبه ؛ لأنه لم يلتق به مكتملا قط .

أما من الناحية الأخلاقية (ونعنى مسألة طاعة القوانين الإلهية أو الخروج عنها) فنحن نعلم بادئ ذى بدء بطبيعة الحال أن القوانين الإلهية ملزمة

للعميان وللمبصرين على السواء ، وفي نفس الوقت نجد بين الظروف التي تغير من طبيعة الخطيئة (بما يزيد من الإثم أو ينقص منه) عدداً من العوامل المتصلة بالعمى وبالخيرات المتناقضة بسبب العمى . وسوف نتحقق من هذه الأمور بصورة أكثر اكتئالا متى عرفنا العمى ذاته بصورة أكثر اكتئالا .

وفيا يتصل بواجب العبادة الجماعية يوم الأحد لانستطيع أن نقرر قاعدة عامة ، فبعض العميان يعفون منها عادة لأنهم مرضى وملازمون للفراش ، وغيرهم يعفون منها لأن لديهم مشكلات عصبية خطيرة تجعل من المستحيل عليهم أن يذهبوا وسط الجموع . وغيرهم يعفون لأنهم يستشعرون خوفاً من الانتقال إلى حد أنهم لا ينتقلون قط إلى أى مكان ، ولكن هناك الكثيرين من العميان الذين يشاركون في المناشط العادية في المجتمع المحلي أثناء الأسبوع ، فهم يذهبون إلى العمل وإلى أماكن الترويح . من الخطأ للفادح أن نفق يصفة عامة مثل هؤلاء العميان من واجب العبادة الجماعية متعللين فحسب بالعمى وحده^(١) .

ونحن بحاجة إلى أن نعرف أيضاً كيف يختلف أى شكل من أشكال العبادة الجماعية بالنسبة إلى العميان اختلافاً « محسوساً » عما عليه الأمر بالنسبة إلى المبصرين . فنظام الأسرار الكنسية كله يكون المادى فيه رمزاً للروحى . وما يظهر للحواس يرمز لما يظهر للروح . فإذا لم نتأمل الأمر جيداً فمن الممكن أن تغيب عنا كثرة الاستنارات الموجهة إلى حاسة

(١) كل دراسة علمية ينبغي أن تعتمد باللوعومعية عن ذاتية الباحث واهتماماته الخاصة ، وإلا فإنه يقسم على العلم ما ليس من العلم فى شئ . من هنا كان خطراً اشتغال بعض رجال الدين بالباحث العلمية . (المترجم) .

الإبصار^(١) حيث الأشياء « المرئية » بمعنى الكلمة تتأدى بالمتعبدين إلى الأشياء غير المرئية . وإدراك هذه الصعوبة كان بالغ الأهمية في إعانتنا على التربية الدينية للأطفال العيان . فينبغي أن نهتم بجعل كل شيء « ملموساً » أثناء عملية التربية هذه حتى يمكنهم أن يعرفوا ماذا يجري في وضوح تام ، وهذا مهم أيضاً عند تناولنا ، وعند تفهمنا لمشكلات الراشدين من العيان فيما يتصل بالخدمات الدينية :

وبالنسبة للكتب الدينية (بالإضافة إلى ما قلناه عن مصادر القراءة بصفة عامة في الفصل ١٣ والابتعاث ٨) ، ينبغي أن نكون على حذر فلا نشجع تعدد جمعيات النسخ « بالبراي » ، فهمتنا أن نزيد من تداول كتب « البراي » ، لا أن نعدد ونضاعف من نسخ الكتاب الواحد .

وفي هذا المقام يهمننا أن نعرف بين كتب « البراي » ، مقدار النسبة المثوية التي يكتب « الوحي » . أيتحمل أن بعضاً من هذه على الأقل يرجع إلى الخرافة التي تحدثنا عنها من قبل ؟ يبدو أحياناً وكأن بعض الناس نظروا إلى العيان وقالوا : « هذه جماعة تستطيع أن تفرض عليها القداسة » . فعند الرغبة في اجتذاب أناس إلى الله يوجد دوماً إغراء بمحاولة فرض القداسة عليهم . ولكن هذه المحاولة لا يمكن بحال أن تكون محاولة مثمرة . إننا قد ننجح في فرض مظهر القداسة على بعض الناس ، ولكن القداسة لا تأتي إلاً من الداخل .

(١) وهذا يصدق بصفة خاصة ، كما في الطقس الروماني في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في الوقت الحاضر ، متى كانت لغة القداس غير مفهومة من الشعب . فن الصعوبة يمكن بالنسبة إلى الكاثوليكي المادى الأعمى أن يركز تفكيره على المذبح أثناء إلقاء القداس . فهؤلاء تم أفر لديهم مساعدة من كتاب صلاة القداس « بالبراي » ، من حيث إن نقل صلاة القداس بالبراي يتطلب مجلدات يكون استخدامها غير عملي . ومن أجل ذلك فإن جماعة من القساوسة الكاثوليك المعينين للعمل مع العيان دون سواهم - أصدروا قراراً بمطالبة الأسقف بأن يلتزم من قداسة طلباً بأن يصرح لهم باستخدام اللغة القومية في صلاة القداس .

إن مهمتنا هي أن نتيح للناس النمو (كما يشاء الله في الحق لهم أن ينموا) وأن نهيهم لهم الفرص كما يتعلموا عن الله ، فنقدم لهم في كل مرحلة من مراحل نموهم معارف عن الله تلائم هذه المرحلة ، إن علينا أن نعينهم ونساعدهم بحيث يبلغون إلى الاستقلال عنا . علينا أن نحيمهم من مسالك الشر ، لا بين جدران البيت وإنما في العالم : علينا أن نحيمهم من الأذى الخلقى لا بأن نحول بينهم وبين النمو ، وإنما بالحري بتعليمهم أن ينموا بحيث يختارون بأنفسهم الخير ويتجنبون الشر .

ذلك هو الشأن بالنسبة إلى الكتب الدينية للعميان . ينبغي أن نحاول بكل وسيلة أن نضع في متناولهم تلك الكتب الدينية التي تساعدهم على أن يعرفوا الله ويحبوه . ولكن لا يجوز لنا أن نحاول ما هو أكثر (ولا ما هو أقل) بحيث نجعل كل كتبهم دينية بحتة ، بأكثر مما يجب أن نفعل مع جماعة المبصرين .

إن العمى إعاقة متعددة الجوانب ، وعلى الشخص الذي يهتم بالنمو الروحي للعميان أن يعرف هذه الحقيقة ، وأن يحاول الحصول على أكبر قدر ممكن من المعرفة عن العمى حتى يمكنه أن يساعدهم . وفي بعض الأوقات سوف يكون عليه أن يطلب إرشاداً خاصاً من أولئك الذين تخصصوا لمزيد من المعرفة عن المشكلات الخاصة بالعمى . ليس في طبيعة العمى على أى حال ما يدعو إلى نقل الرعاية الروحية للعميان بعيداً عن الكنيسة العادية . والجمعيات الدينية الخاصة بالعميان هدفها أن تجعل الأعمى عضواً أفضل في كنيسته . والمعيار الصحيح لنجاح هذه الجمعيات والمبرر الحقيقي الوحيد لوجودها هو مدى ما تحققه في هذا السبيل .